آليات الانسجام النصي في قصص القرآن (دراسة تطبيقية)

د. عبد الوهاب صابر عيسوي

مقدمة:

اللغة هي الوسيلة الأكثر انتشارا في التواصل، ومن هنا كان لها نصيب كبير في اهتمام العلماء على اختلاف اختصاصاتهم، وقد كانت الجملة المحور الرئيس الذي تدور حوله الدراسات اللغوية، ومع التقدم الحاصل في كل المجالات كان لابد لمجال الدراسات اللغوية من التطور؛ فانتقل محور الاهتمام من الجملة إلى النص، وهكذا ظهر ما يعرف بنحو النص أو لسانيات النص أو علم اللغة النصي.

يعد مصطلحا الاتساق والانسجام من أهم القضايا التي تناولها علم اللغة النصي أو نحو النص، ومن أهم القضايا التي لقيت اهتماما من علماء العرب و المسلمين، كما شغلت المستشرقين حتى إن بعضهم رأى أن القرآن الكريم كتاب غير منسجم، يسلبه بذلك أهم أسس نصيته. وقد كان لي حظ في دراسة الاتساق آلياته وأدواته في قصص القرآن، وبعد فراغي منه آليت ألا أترك دراسة الانسجام في قصص القرآن، فكان موضوع بحثي هذا الموسوم بـ " آليات الانسجام النصي في قصص القرآن. دراسة تطبيقية". وجاء اختياري لدراسة الانسجام تطبيقا على قصص القرآن؛ لأنه رغم كثرة الدراسات الغربية التي تهتم بالانسجام و لسانيّات النص، فقد قل الاهتمام بدراسة القرآن من هذا الجانب، إلا بعض الدراسات الاستشراقية التي طغى عليهاالنزعة الذاتية أو بعض الدراسات العربية التي طغى عليها التقليد الأعمى للدراسات الاستشراقية،ف ابتعدت في نتائجها عن الإنصاف والعلمية، فواجه النص القرآني عامة وقصص القرآن خاصة افتراءات كثيرة تسلبه حقه ليكون النص المعجز الفريد، من هذه الافتراءات:

- تعدد موضعات السورة الواحدة.
- تكرار موضعات نفسها عبر سور مختلفة، دون هدف، ويخصون هنا قصص القرآن التي تتكرر من سورة إلى أخرى.
- العلاقة بين السور، و العناوين علاقة اعتباطية.
- وجود الفجوات بين الآيات، بسبب الانتقال المفاجئ.
- تناقض المحتوى بين بعض الآيات في السور.

ومن البدهي بعد هذه الافتراءات أن تكون النتيجة التي وصلوا إليها أن القرآن كتاب غير منسجم، و بعبارة أخرى أن القرآن الكريم لم تتحقق فيه النصيّة، بسبب ما سبق ذكره.

وقد اتبع البحث المنهج الوصفي التحليلي في الدراسة.

القسم الأول- الدراسة النظرية

آليات الانسجام النصي

الانسجام في اللغة:

تدور مادة (سَجَمَ) في القاموس المحيط حول عدد من الدلالات، فيقال: «سَجَمَ الدَّمْعُ سُجوماً وسجاماً، ككتاب، وسَجَمَتْهُ العينُ، والسَّحابَةُ الماءَ، تَسْجِمُهُ وتَسْجُمُهُ سَجْماً وسُجوماً وسَجَماناً: قَطَرَ دمْعُها، وسالَ قليلاً أو كثيراً، وسَجَمَهُ هو، وأسْجَمَهُ وسَجَّمَهُ تَسْجيماً وتَسْجاماً. والسَّجَمُ، بالتحريك: الماءُ، والدَّمْعُ، وَوَرَقُ الخِلافِ. والأَسْجَمُ: الأَزْيَمُ. وسَجَمَ عن الأَمْرِ: أَبْطَأَ.. »[١]

كما وردت هذه المادة في لسان العرب، "سَجَمَتِ العين الدمع والسحابةُ الماء تَسْجِمُه وتَسْجُمُه سَجْماً وسُجُوماً وسَجَماناً: وهو قَطَران الدمع وسَيَلانه، قليلاً كان أَو كثيراً، وكذلك الساجِمُ من المطر، والعرب تقول دَمْعٌ ساجِمٌ. ودمع مَسْجوم: سَجَمَتْه العين سَجْماً، وقد أَسْجَمَه وسَجَّمَه. والسَّجَمُ: الدمع.... وكذلك عين سَجُوم وسحاب سَجُوم. وانْسَجَمَ الماءُ والدمع، فهو مُنْسَجِمٌ إذا انْسَجَمَ أي انصب. وسَجَّمَتِ

السحابة مطرها تَسْجِيماً وتَسْجاماً إذا صَبَّتْه..... سَجَمَ العينُ والدمعُ الماءَ يَسْجُمُ سُجُوماً وسِجاماً إذا سال وانْسَجَمَ. وأَسْجَمَتِ السحابة: دام مطرها"٢.

و جاء في معجم المحيط: "انسجام (س ج م)، (مص، انسجم)
تمتازُ كتاباتُهُ بانْسجام الأفْكار: أيْ لاَ تَناقُضَ بَيْنَ أفْكَارِها
انْسجامُ التَّعْبير: أيْ وُضوحُ أَلْفاظه، لاَ تَعْقيدَ فيه، سَهْلُ التَّرْكيب
انْسجامُ الأَصْوات: أصْواتٌ لا نَشازَ فيها، مُنْسَجِمَةٌ مُتَناغِمَةٌ
انسجمَ ينسجم، انسجامًا، فهو مُنسجم
انْسَجَمَتْ أَلْفاظُ القَصيدَة: تَناغَمَتْ أَصْواتُ كَلماتها وَتَناسَقَتْ: انْسَجَمَ الكَلامُ
انْسَجَمَ مَعَ نَفْسه لَمَّا اعْتَرَفَ بالحَقيقَة: تَوافَقَ مَعَها، لَمْ يَشْعُرْ بِأَنَّهُ مُتَناقِضٌ مَعَ نَفْسِه
انْسَجَمَ الماءُ: انْصَبَّ.
انسجم الكلامُ انتظم ألفاظًا وعبارات من غير تعقيد، كان سلسًا أنيقًا، متوافقًا في الأفكار والشعور والميول ٣

نلاحظ أن مادة (سجم) في المعاجم تدور حول عدد من المعاني: السيلان، والقطران، والانصباب، والصب، والدوام، فما العلاقة التي تربط بين الانسجام بالمعنى اللغوي والانسجام بالمعنى الاصطلاحي؟ إن المعنيين اللغوي والاصطلاحي مرتبطان معا ارتباطا وثيقا؛ من حيث إن الانسجام بمعنى انصباب الماء وسيلانه ونزول المطر ودوامه يقابله الانسجام بمعنى انصباب معاني النص وتواليها وتتابعها وعدم انقطاعها؛ مما يجعل هذه المعاني الكثيرة المستخلصة من النص تؤدي الوحدة الدلالية المطلوبة؛ مما يحقق للنص الانسجام. وعلى هذا فالنص يكون منسجما إذا كانت أفكاره تصب في مصب واحد، وغير متناقصة، مما يُشعر الملتقي بتسلسلها وتواليها.

وقبل أن ننتقل إلى المعنى الاصطلاحي للفظ الانسجام ينبغي أن نشير إلى أنه قد تباينت الآراء حول نقل المقابل غير العربي (الفرنسي) (Cohérence)، أو الإنجليزي (Coherence) لمصطلح الانسجام؛ فجمع صبحي إبراهيم الفقي المقابلين الفرنسي والإنجليزي تحت مسمى " التماسك النصي"، واختار المقابل الفرنسي (Cohérence)، ثم جعل هذا التماسك على قسمين: قسم يحقق التماسك الشكلي للنص، والآخر: يهتم بعلاقات التماسك الدلالي بين أجزاء النص وما يحيط به من سياقات٤، ومن اللغويين من اختار لفظ (الحبك) وهو اختيار الدكتور محمد العبد؛ يقول الدكتور العبد: " فقد آثرت الحبك على غيره مما دار مداره في التراث، كما آثرته مقابلا عربيا مناسبا (Coherence)"٥، واختار تمام حسان لفظ "الالتحام"٦ في ترجمته لكتاب النص والخطاب والإجراء، وعلى نهج صبحي الفقي جمع محمد مفتاح -أيضا- بين مصطلحي الاتساق والانسجام معا واختار لهما مصطلح (الالتحام)، والالتحام عنده يحتوي على عنصرين (التنضيد والتنسيق)، ويقصد بالتنضيد: "الجمل التي نجد فيها أدوات العطف ومختلف الروابط الأخرى التي تعلق جملة بجملة"٧، وهذه عناصر الاتسا ق، ويعرف التنسيق بأنه: "العلاقات المعنوية والمنطقية بين الجمل حيث لا تكون هناك روابط ظاهرة بينهما"٨، وهذه الروابط الدلالية تندرج ضمن الانسجام ويواصل مفتاح فيقول: "إن هذا الالتحام وما يقتضيه من تنضيد وتنسيق هو ما يدعى –غالبا- بانسجام النص لدى الدارسين البنيويين المحافظين والمحللين للخطاب من اللسانيين"٩. أما الدكتور بحيري فقد اختار لفظ " التماسك"١٠، واختار محمد خطابي لفظ "الانسجام"١١.

وقد اعتمد البحث لفظ (الانسجام)؛ لأنه الأشهر في حقله، فضلا عن التناسب الكبير بين الدلالتين اللغوية والاصطلاحية لمصطلح الانسجام.

الانسجام في الاصطلاح:

أن لمصطلح الانسجام أهميةً خاصة في مجال لسانيّات النص؛ فبالانسجام يتمُّ الكشفُ عن التلاحم الحاصل بين الكلمات والجمل والفقرات والنص كاملًا، وبالمقارنة الدلالية بين مصطلح الانسجام ومصطلح الاتساق نجد أن الانسجامَ يُعَدُّ أعمقَ وأشملَ من مصطلح الاتساق؛ لأننا ننظرُ بالانسجام إلى علاقاتٍ خفيّةٍ داخلَ النص من دلالاتٍ ومفاهيمَ وعلاقات، ولا ننظرُ إلى الناحيةِ الشكليّةِ أو المعجميّةِ

الخارجيّة؛ لذلك فهو في رأي (كلاوس برينكر) "المفهوم النواة في تعريف النص"١٢.

"ظهر مفهوم الانسجام في اللسانيَّات الحديثة في دروس (ق. قيوم) الذي يجعل منه خاصيةً للسان باعتباره نسقًا، وباعتباره "كلا نسقيا أجزاؤه كلها في انسجام... إن الانسجام باعتباره من صميم تعريف النص لا ينفصل في اللسانيات النصيّة عن مفهوم الاتساق الذي كثيرا ما يختلطُ به"١٣.

فالاتساقُ باعتبارِه نصيّةً قائمةً على الشكلِ يقابُلها عند (روبرت دي بوجراند) الانسجامُ "باعتباره نصيّةً قائمةً على الإعلام؛ فالاتساقُ في نظره مظهرٌ للنحويّة، في حين أن الانسجامَ مظهرٌ للمقبوليّة... ويجعل (شارول) من الانسجام مبدأً عامًا للتأويل، وشكلًا مسبَقًا للتعرُّف على مجموع لغويٍّ باعتباره نصًا"١٤. والانسجامُ عند (فندايك Vandyk) " هو التماسك الدلالي بين الأبنية النصية الكبرى"١٥.

تحدثَ السيوطيُّ (ت ٩١١هـ) عن خصائص الكلام المنسجم، فذكر: "أنْ يكونَ الكلامُ لخلوِّه من الانعقاد منحدرًا كتحدُّرِ الماءِ المُنْسَجِم، ويكاد لسهولةِ تركيبه، وعذوبة ألفاظه أن يسهلَ رقة، والقرآنُ الكريم كلُّه كذلك... جاءت قراءته موزونة بلا قصدٍ لقوة انسجامه"١٦. فتحقيقُ الانسجام هنا يتوقف على سهولة التركيب والبناء، وتسلسُلِ الجمل وتواليها وترابطِها مما يخلقُ الانسجام، فيَسْهُل على القارئ تحقيقُ الفهم. ويضع (سوفنسكي) شروطًا مهمة لتحقيق الانسجام داخلَ النصوص؛ فانسجام النصوص يتحققُ إذا " اتصلت بعضُ المعلومات فيها ببعض، في إطارٍ نصيٍّ أو موقف اتصاليٍّ اتصالًا لا يشعرُ معه المستمعونَ أو القراءُ بثغرات أو انقطاعات في المعلومات"١٧؛ فشروطُ تحقُّقِ الانسجام في النصوص عند (سوفنسكي) هي: اتصالُ المعلوماتِ وترابطُها وعدمُ انقطاعها.

أهمية الانسجام للنصوص:

يُعَدُّ الانسجامُ أحدَ العناصر المهمّة في النص؛ لأن الانسجامَ يضمنُ للنصَّ استمراريتَه، ويساهمُ في كشف قيمِه الجماليّة والأدبيّة، وذلك بتمكُّن القارئ من تفاعله مع النص، فيقوم بالتحليل والتفسير والتأويل واستنطاق مُختلف عناصره.

والانسجامُ يسمح للقارئ أن يبقى في حوارٍ مفتوح دائم مع النص؛ لذلك "فإن الدراسات التي اهتمَّت بانسجام النص اعتادت أن تطرح جملةً من الأسئلة التي يمكن أن تساعد في فهم النص ومن أهم هذه الأسئلة: التساؤل عمن فعل؟ وماذا فعل ؟ وأين ؟ ومتى؟ وكيف؟ ولماذا؟"١٨. هذه الأسئلة لا غنى عنها في تحليل الخطاب أو النص؛ فبهذه الأسئلة يتحقق التواصل ويتم إبلاغ الرسالة. وعلى القارئ السعي إلى كشف كل ما هو غامض ومبهم كما يحاول الكشف عن أسرار النص وسبر أغواره.

و تكمن أهمية الانسجام – أيضا- في إعطاء أهمية لعناصر الرسالة من مرسل ومتلقي، ويُطْمَح من وراء الانسجـــام كذلك إلى " منـاقشــة النصّ في سيــاق الإبــلاغ الأدبـــي poetic communication، من حيث إنتاجه production والاستقبال reception، والعوامل الأدبية الاجتماعية sociopoetic والنفسية psychopoetic والتي تؤثر في النصّ أو الخطاب."١٩

كما أن للانسجام دورًا في تحديد المعاني المفترضة والوصول إلى الدلالات اللازمة، فشكل بناء النص المنسجم يسمح بتحقيق الفهم الصحيح بالوصول إلى ما وراء المعنى.

والانسجام يعمل على تحقيق الاستمرارية في النص؛ فالانسجامُ "يتصل إلى هذا المعيار برصد وسائل الاستمرار الدلالي في عماله أو العمل على إيجاد الترابط المفهومي"٢٠

ويرى خطابي أن للمتلقي الدورَ الرئيس في الحكم على النص بالانسجام أو غير الانسجام؛ فليس هناك نصٌّ مُنسجِمٌ في ذاته وغيرُ مُنسجِم في ذاته، فقد يكون على المتلقي إعادة "بناء انسجام النص الممزقة أوصالُه"٢١، وقريب من هذا الكلام رأي (براون ويول) اللّذين يريان أن انسجام الخطاب ليس شيئا موجودا في النص علينا ان نبحث عنه لنجده، إنما هو شيء يبنى، والحكم بانسجامه يعود للمتلقي ٢٢؛ فإن " المتكلمين / الكتاب هم الذين يطرحون موضوعاتٍ وفرضيَّات، ويضعون المعلوماتِ التي لديهم بنيةٍ معيَّنة... وأن السامع / القارئ هو الذي يقوم بعملية التأويل و الانسجام."٢٣

كلام خطابي وبراون ويول يظهر فيه من الإطلاق والشيوع الكثير؛ فالنصُّ الواحد – على هذا الرأي – قد يكون مُنْسجِمًا في رأي البعض وغيرَ مُنسجِمٍ في رأي الأخرين، وهو كلام لا ينسجم مع كل النصوص وبخاصة النصُّ القرآني؛ لأنه يغفل الدور الكبير لمنشئ النصّ،

فهذا الكلام أفرط في دور المُتلقي، حتى جعله العنصرَ المركزيَّ في تحقيق الانسجام.

وعلى خلاف ذلك جعل (فندايك Vandyk) الانسجام " هو التماسك الدلالي بين الأبنية النصية الكبرى"٢٤، وربط (فندايك) بين التماسك الدلالي والبنية العميقة، وتوصل من ذلك إلى نتيجة مهمّة، هي أن تحليل النصوص يعتمد على رصد أوجه الربط أو الترابط والانسجام والتفاعل بين الأبنية الصغرى الجزئية والبنية الكلية الكبرى (أو الأبنية الكبرى) التي تجمعها في هيكل تجريبيٍّ منتظم٢٥.

إن البحث عن انسجام النص أو عدم انسجامه يتطلب معالجةَ النص وفقًا للسانيّات النصّ التي تتطلب بدورها توفُّرَ مجموعة من الوسائل اللغوية التي تجعل النص الواحد قائمًا بذاته؛ وذلك انطلاقا من العلاقات الدلاليّة والمعرفة بعالم النص، والبِنَى الكبرى، والنظر في السياق الذي ورد فيه النص.

ولايمكننا الاعتماد على المُتلقي في الحكم على النص بمعزلٍ عن هذه الوسائل اللغوية، أو بمعزل عن الخبرة في التعامل مع النصوص.

آليات الانسجام النصي:

رأينا فيما سبق أن بعض اللغويين – مثل: خطابي، وبراون، ويول- جعل للمتلقي الدورَ الرئيس في انسجام النص، وذكرنا أن هناك مجموعةً من الخبرات التي يجب أن يَتحلَّى بها المُتلقي، كما أن هناك بعضَ الوسائل التي يجبُ الاستعانةُ بها، وعلى هذا فعلى المُتلقي أن يبذل جهدَه التأويليّ لربط أجزاء النص دلاليًّا، ويتم ذلك بالتدرج في بنيةٍ معرفيّةٍ كليّة، تبدأ برصد العلاماتِ الخفيّة التي تتماسك بها وحداتُ النص، وهنا يكون للمُتلقي المُبدِع دورُه في الحكم على انسجام النص.

وقد تعددت الرؤى حول آليّاتِ الانسجام النصيِّ والأدواتِ التي يتعامل بها المُتلقي المُبدِع مع النص للحكم عليه، وبرزت في هذا المجال رؤيتان اثنتان:

الرؤية الأولى- رؤية الهولندي (فان دايك) الذي رأى أن مظاهر الانسجام النصي ترتكز على ما يلي:

- **ترتيب الخطاب:** "ويُسمِّيه الترتيب العادي للوقائع في الخطاب؛ فورود الوقائع في متتالية معينة يخضع للترتيب العادي الذي تحكمه عدةُ مبادئَ أهمُها معرفتُنا للعالم٢٦.

ذكر فان ديك فيما يتعلق بترتيب الوقائع وترتيب المتتالية العلالقات التي تحكم هذا الترتيب، "وهي علاقاتٌ تخضع لمبادئَ معرفيّةٍ كالإدراك والاهتمام, وقد حصرها فيما يلي:

- العام – الخاص
- الكل – الجزء
- المجموعة – المجموعة الفرعية – العنصر
- المتضمِّن – المتضمَّن
- الكبير – الصغير
- الخارج – الداخل
- المالك - المملوك٢٧.

ويذهب فان ديك إلى أننا "نرى عادة مجموع الشيء قبل أجزائه، كما أننا نرى شيئا كبيرا قبل أن نرى شيئا أصغر منه، إلا أن الترتيب الخاضع بدوره لهذه العلاقات يمكن أن يحدث فيه تغييرٌ ما، إذ يمكن أن يُفسر شيءٌ خاص بشيءٍ عام... كما يمكن أن يتقدم المملوك على المالك أو الجزء على الكل..الخ. ويتم ذلك لأغراض ومقاصد يهدف المتكلم / الكاتب إلى تحقيقها "٢٨.

وعلى هذا يتضح أن الترتيب يقوم بدورٍ أساسيٍّ في انسجام الخطاب، وكلما حدث تغييرٌ في الترتيب دون أن يحقق أغراضًا معينّة، محددة سلفًا، كان الخطاب غيرَ مُنسجم من حيث إغفاله للعلاقات السالفة الذكر.

- **الخطاب التام والخطاب الناقص:** ويعني (فان دايك) بالخطاب التام إخضاع كل المعلومات الواردة في خطاب ما لعملية انتقاء بحيث لا يبقى معنا في هذا الخطاب إلا المعلوماتُ الضرورية (التي يعتبرها طرفا التخاطب ضرورية) ٢٩.

- **موضوع الخطاب/ البنية الكلية:** يعتمد (دايك) على موضوع الخطاب كبنيةٍ دلاليّة، يصف من خلالها انسجامَ الخطاب.٣٠

الرؤية الثانية- رؤية الكاتبين براون ويول:

ذكرنا فيما سبق أن الكاتبين في كتابهما " تحليل الخطاب " جعلا المتلقي في قلب عملية التواصل، فليس هناك نصٌّ مُنسجِمٌ في ذاته ونصٌّ غيرُ منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي؛ فالمتلقي هو الذي يقوم بعملية التأويل والانسجام٣١. أي أن الخطاب يستمد انسجامَه من فهم وتأويلِ المتلقي ليس غير، وللبرهنة على هذا الرأي يقدمان نصوصًا تفتقرُ إلى الروابط الشكليّة، ومع ذلك يستطيع القارئ فهمها وتأويلها، أي اعتبارها نصوصًا منسجمة رغم تفكُّكها. و معنى ذلك أن الخطاب قد لا يملك مقوماتِ انسجامِه وإنما القارئُ هو الذي يسند إليه هذه المقومات، وإن كلَّ نصٍّ قابلٌ للفهم والتأويل فهو نصٌّ منسجم، والعكس صحيح٣٢.

وعلى هذا يرى (براون ويول) أن هناك مبادئَ وعملياتٍ يجب أن يشغلها المتلقي للحكم بانسجام خطابٍ أو عدم انسجامه، هذ العمليّات هي:

- السياق: ينبغي على المتلقي عند تحليل الخطاب النظرُ إلى السياق الذي ورد فيه الخطاب، والسياقُ عند (براون ويول يتشكل من المتكلم/ الكاتب، والمستمع/ القارئ، والزمان والمكان)؛ لأنه يؤدي دورًا فعَّالًا في تأويل الخطاب، بل كثيرا ما يؤدي ظهور قولٍ واحدٍ في سياقين مختلفين إلى تأويليين مختلفين ٣٣.
- مبد أ التأويل المحلي: يرتبط هذا المبدأ بما يمكن أن يعد تقييدا للطاقة التأويلية لدى المتلقي باعتماده على خصائص السياق, كما أنه مبدأ متعلق أيضا بكيفية تحديد الفترة الزمنية في تأويل مؤشر زمني مثل (الآن) أو المظاهر الملائمة لشخص محال إليه بالاسم) محمد) مثلا٣٤، فهذا المبدأ يعني أن المتلقي يجب ألا " يُنْشئَ سياقًا أكبر مما يحتاجه من أجل الوصول إلى تأويلٍ ما٣٥.
- مبدأ التشابه: ويظهر في هذا المبدأ أهميةُ التجربة السابقة في إدراك المتلقي للإطرادات عن طريق التعميم٣٦. وهذا يحدث بعد المرور بخبرات طويلة مع خطابات متعددة، ومعرفة خصائص كل خطاب. من هذا المنطلق يظهر مبدأ التشابه كأحد الاستكشافات الأساسية التي يتبناها المستمعون والمحللون في تحديد التأويلات في السياق٣٧.
- مبدأ التغريض: ما يبدأ به المتكلم أو الكاتب سيؤثر في تأويل ما يليه, وهكذا فإن عنوانا ما سيؤثر في تأويل النص الذي يليه كما أن الجملة الأولى من الفقرة الأولى لن تفيد فقط تأويل الفقرة وإنما بقية النص أيضا, بمعنى أننا نفترض أن كل جملة تشكل جزءًا من توجيهٍ متدرّج متراكم يُخبرُنا عن كيفيّةِ إنشاء تمثيلٍ منسجم. ويستعمل باحثٌ أخر مفهومًا أعم وهو مفهوم البناء الذي يحدده كرايمس على النّحو التالي: (كل قول, كل جملة, كل فقرة, كل حلقة, وكل خطابٍ منظم حول عنصر خاص يُتّخَذ كنقطةِ بداية). وفي اعتقادنا أن مفهومي التغريض والبناء يتعلقان بالارتباط الوثيق بين ما يدور في الخطابِ وأجزائه وبين عنوان الخطاب أو نقطة بدايته, مع اختلافٍ فيما يعتبر نقطة بداية حسب تنوع الخطابات ٣٨. وهذا كتناسب اسم السورة القرآنية ومحتوى السورة، أو تناسب عنوان القصة ومحتواها.

من هاتين الرؤيتين نستطيع أن نخرج برؤية واضحة المعالم عن آليات الانسجام النصي في قصص القرآن، وهي كالآتي:

- السياق
- بنية الخطاب
- التغريض
- المناسبة
- تكرار القصص القرآني

ونفصل هذه الآليات فيما يأتي:

آليات الانسجام النصي في قصص القرآن

أولًا- السياق:

ظل السياق محل اهتمام العلماء قديما وحديثا؛ فقد كان وسيلتهم لفهم النصوص وتحليلها، فالتحليل النصي يعتمد على السياق

في الكشف عن اتساق النص وانسجامه وتماسكه، وتزداد أهمية السياق في التحليل النصي عند خفاء الروابط أو غيابها، فقد يكون النص خالياً من الأدوات الشكلية المعروفة لتحقيق التماسك النصي، فيستعين القارئ بالسياق المحيط بالنص لصنع علاقات ضمنية غير محسوسة بين أجزاء النص، ومن ثَم يتماسك النص أمامه كما لو كانت أدواته الشكلية موجودة. فالسياق " إطار عام تنتظم فيه عناصر النص ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بواسطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغوية وتداولية، ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ."٣٩ والسياق يدل على الظروف والملابسات الخارجية التي تستعمل لتأويل لفظة أو عبارة أو نص ما، فهو إما للدلالة على السياق النصي، وإما على السياق الخارجي أو المقام"٤٠. والسياق هو غرض المتكلم وقصده من إيراد الكلام. والسياق في إطار القرآن هو " تتابع المعاني و انتظامها في سلك الألفاظ القرآنية، لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال"٤١.

تعددت المصطلحات العربية المرادفة للسياق؛ منها: الحال، المشاهد، المشاهدة، المساق، المقام، الموقف، القرينة، إلى غير هذا من المصطلحات التي أدت وظيفة السياق.

لقد كان السياق محل اهتمام علماء اللغة العرب، كما اهتم البلاغيون والأصوليون والمفسرون بدلالة السياق الذي يُعَوَّل عليه في فهم استعمالات اللفظ في سياقه، وإن لم تكن تشهد له استعمالات لغوية أخرى خارج السياق في بعض الأحيان؛ ولذلك عده كثير من العلماء المنهج الأمثل في التفسير، وضابطًا من الضوابط المهمة في حسن الفهم والتأويل، وتجلَّى اهتمامُ المفسرين بالسياق في قاعدة تفسير القرآن بالقرآن٤٢.

لم يشغل السياقُ بالَ العلماء العرب فحسب، بل تجاوزهم إلى علماء الغرب؛ فهذا (فيرث Firth) –عالم اللغة الإنجليزي– يضع نظريته في هذا المجال بعنوان "نظرية السياق"، يرى (فيرث) أن معظم "الوحدات الدلالية تقع مجاورة وحدات أخرى، وإن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورةً لها."٤٣، و قد استخدم (فيرث) السياق في هذه النظرية بمفهوم واسع بحيث يشمل" السياق الصوتي، والصرفي، و النحوي، و المعجمي، و لا يظهر المعنى المقصود للمتكلم إلا بمراعاة الوظيفة الدلالية للألفاظ المستخدمة"٤٤.

ويرى (هاليداي Halliday) أكثر تلاميذ (فيرث) تأثرا به أن السياق هو "النص الآخر، أو النص المصاحب للنص الظاهر، وهو بمثابة الجسر الذي يربط التمثيل اللغوي ببيئته الخارجية"٤٥.

إن المهمة الكبرى للسياق هي منع تعدُّد المعاني، بحيث يشكل العامل الحاسم الذي يحدد معنى اللفظ وهذا ما أشار إليه عالم اللغة الفرنسي (جوزيف فندريس) قائلا: "إننا حين نقول بأن لإحدى الكلمات أكثر من معنى واحد في وقت واحد نكون ضحايا الانخداع إلى حد ما، إذ لا يطفو في الشعور من المعاني المختلفة التي تدل عليها إحدى الكلمات إلا المعنى الذي يعينه سياقُ النص، أما المعاني الأخرى فتُمَّحَى وتُبَدَّد ولا تُوجد إطلاقا".٤٦

ولأن بحثنا يتعلق بالنص القرآني علينا أن نبحث في السياق القرآني:

السياق القرآني هو الأغراض التي بُنيت عليها الآية أو السورة، وما انتظم بها من القرائن اللفظية والحالية وأحوال المخاطبين بها. والمقصود بالقرائن اللفظية: القرائن النصية وهي ما احتواه النص من التعبير والتركيب والارتباط بين الآيات ونحوها. والمقصود بالقرائن الحالية: الأسباب والأحوال التي نزلت الآية فيها.

أنواع السياق القرآني:

للسياق القرآني أربعة أنواع:

أولا- سياق القرآن: المراد بهذا النوع من السياق القرآني أمران:

"١- الأغراض والمقاصد الأساسية التي تدور عليها جميع معاني القرآن، إلى جانب النظم الإعجازي، والأسلوب البياني الذي يشيع في جميع تعبيراته.

٢- الآيات والمواضع التي تتشابه في موضوعها، مع اختلاف يسير في طريقة سردها وترتيب كلماتها لمناسبة المقام، ولحكمة بلاغية

تتصل بأغراض السورة "٤٧. ومن أمثلته رفض الزمخشري أن يكون معنى النكاح الوطء، وبين المعنى الصحيح معتمدا على سياق القرآن، و أورد الآية الكريمة، قال تعالى: ﴿الزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾" النور: ٣. قال: "قيل المراد بالنكاح الوطء، وليس بقول، لأمرين، أحدهما: أن هذه الكلمة أينما ورد ت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد.

والثاني: فساد المعنى وأداؤه إلى قولك: الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزني بها إلا زان"٤٨

ثانيا - سياق السورة: الذي يشكل وحدة عضوية متكاملة، ووحدة السورة أو سياقها العام هو الذي يُطلع القارئ على مضمون السورة كلها، ولو تدبَّر القارئ وتفحَّص وتبصَّر في سورة واحدة لرأى قرآنًا عجبًا؛ ذلك بما سيتجلَّى له من ترابُط السورة وقوة بنائها وانتظامها في خيط واحد، فنرى –مثلاً– شيخ الإسلام يُبرز وحدة سورة البقرة ويُحدِّد سياقها وغرضها العام فيقول: "وقد ذكرت في مواضع ما اشتملت عليه سورة البقرة من تقرير أصول العلم و قواعد الدين"٤٩

ثالثا - سياق المقطع: الذي يشكل محورًا رئيسًا من محاور سياق السورة، وهو المقطع المتحد في الغرض، ويظهر هذا النوع كثيرا في سياق القصص القرآني، فيكون الترجيح على سياق النص، ولو تدبَّرت كلَّ سورة لوجدتها تتجزأ إلى عدة مقاطعَ، كلّ مقطع يتضمن غرضًا مستقلاً. وقد تجلَّى ذلك في سورة البقرة، فمن أمثلة ذلك: آيات النفقة، والربا، والمداينات في سورة البقرة كل موضوع جاء لغرض، وقد اجتمعت كلها في غرض واحد وسياق واحد، هو حفظ الأموال وبناء النظام الاقتصادي للأمة.

رابعًا - سياق الآية: الذي يشكل وحدة بناء في سياق المقطع، في هذا النوع يُنْظَرُ إلى سياق الآية؛ فقد يكون هناك لفظ لا يتحدد معناه إلا من سياق الآية التي ورد فيها، ونوضح ذلك بالمثال الآتي، في قولنا: "الدواء السائل أنسب للأطفال. تكون "السائل" اسم فاعل من "سال"، وفي قوله تعالي: ﴿ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ × لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤،٢٥] تكون "السائل" اسم فاعل من "سأل"، وفي قولنا: "سائل العلياء عنا" يكون "سائل"فعل أمر، ويعود الفضل للسياق في ضبط هذه الدلالات للكلمة الواحدة، ودفع ما قد يتوهم من لبس.

عناصر السياق:

للسياق عناصر مختلفة، تدخل أثناء تفاعله في دورة خطابية معينة، هذه العناصر تختلف بحسب الأداءات و بحسب الأفراد و بحسب الزمان و المكان.وعناصر السياق عند (هاليداي) هي:

١- موضوع الحدث الأساسي

٢- الوسيلة اللغوية نطقا أو كتابة.

٣- نوع النص من حيث كونه سرديا.

٤- أسلوب النص)نوع الكلام نحويًا)، و (نوع الكلام اجتماعيا) من حيث الرسمية و عدمها.

٥- المتكلم.

٦- المخاطب /السامع.

٧- المشاركون في الحدث اللغوي من حيث المستوى الاجتماعي و الثقافي، و علاقة كل منهم بالمتكلم أو السامع، أو بالحدث في إجماله.

٨- الغاية التي يساق لها النص)الغرض(كالإخبار، و الوصف، و الطلب بعمومه.. الخ

٩- الأشياء المحيطة بالحدث)المكان و الزمان)٥٠.

أما عناصر السياق القرآني - وهو مجال بحثنا- فتتحدد في رأي ابن تيمية في الآتي:

١- المتكلم بالقرآن.

٢- المنزل عليه.

٣- المخاطب عليه.

٤- سياق الكلام..

٥- معرفة المكي و المدني.

٦- معرفة أسباب النزول٥١.

ثانيًا- بنية الخطاب:

ذكر محمد خطابي وظيفة موضوع الخطاب عند (فان ديك) بأنه "يختزل موضوع الخطاب وينظم ويصنف الإخبار الدلالي للمتتاليات ككل"٥٢. وبذلك يُعَدُّ موضوعُ الخطاب "بنية دلالية بواسطتها يصف (فان دايك) انسجام الخطاب، وبالتالي يعتبر أداة "إجرائية" حدسية بها تقارب البنية الكلية للخطاب"٥٣.

وقد لاحظ خطابي من تحليلات (فان ديك) لبعض الخطابات، ومن تحدياته (للبنية الكلية) أن مفهوم (البنية الكلية) لا يختلف عن مفهوم (موضوع الخطاب)؛ بمعنى "أن كلا من موضوع الخطاب والبنية الكلية تمثيل دلالي إما لقضية ما، أو لمجموعة من القضايا، أو لخطاب بأكمله"٥٤.

وهنا يظهر دورُ المتلقي المبدع كأحد ركائزِ التحليل النصيّ. فهو "يعتبر القراءةَ الثانيةَ للنصِّ، ولهذا لم يغفل علماءُ اللغة هذا الدورَ للمتلقي، فالنصُّ يعتبر حوارًا قائمًا بين قائل النصَّ، والنصَّ، والمتلقي"٥٥، وعلى هذا فالمُتلقِي المُبدِع مشاركٌ لمؤلِّف النصِّ في إبداعه، "وهذه المشاركة لا تَضْمن قطيعةً بين البنية والقراءة، وإنما تعني اندماجها في عملية دلالية واحدة، فممارسة القراءة إسهامٌ في التأليف، فللقارئ مكانٌ جوهريٌ في عملية التفسير لا يقل عن المنتج"٥٦. وهذا المُتلقي المبدع يمكن ان يتحقق في ظل النص القرآني بإدراكه الأسلوب الفريد للقرآن، وبمعرفته سياقاتِ النصِّ القرآني، وإلمامه بأسباب نزول الآيات، إلى غير هذا ما يجعله متلقيًّا مُبدِعًا للنص القرآني.

وهناك ثلاث عمليات يسلكها هذا المتلقي المبدع لبناء البنية الكليَّة أو موضوع الخطاب، هي:

"أ- عملية الحذف: وتندرج تحتها قاعدةُ عدم إمكان حذف قضية تفترضُها قضيةٌ لاحقة"٥٧؛ ففي سورة القصص –مثلا- لايمكن إغفال قضية استعلاء فرعون في الأرض واستضعافه بني إسرائيل؛ لترتُّب قضايا عديدة على هذه القضية بدءًا من إلقاء موسى في اليم، وانتهاءً بمصير فرعون إلى الغرق.

"ب- عملية حذف المعلومات المكونة لإطار أو مفهوم ما؛ بمعنى أنها (المعلومات) تُعيِّن أسبابًا ونتائجَ وأحداثًا عاديةً أو مُتَوقّعة"٥٨. ويُمثَل لها بإمكان حذف معلومات مثل: الخضرة الخلّابة، والأراضي الزراعية وانتشار الترع والمصارف، إذا كانت ضمن المعلومات المُكَوِّنة لإطار الريف أو القرية.

"ج- عملية التعميم البسيط، وهي تتعلق أيضا بحذف المعلومات، لكن المعلومات الأساسية. وبتعبير آخر يمكن القول إن هذه العملية ترتبط بالوصول إلى العام انطلاقًا من الخاص، مثال ذلك: "اشتريت الخشب والحجر والخرسانة، وضعت الأساس، أقمت الجدر، وبنيت سقفا، هذه المتتالية يمكن أن تُعمَمَ في "بنيت منزلا"٥٩.

وملخص الأمر أن هذه العمليات التي يجريها المتلقي من شأنها أن تحدد المهم في المقطع، وذلك بالنظر إلى أجزاء الخطاب. وعلى هذا فلكل خطابٍ "بنية كلية ترتبط بها أجزاء الخطاب، وأن القارئ يصل إلى هذه البنية الكلية عبر عملياتٍ متنوعة تشترك كلها في سمة الاختزال"٦٠.

إن الانسجام في سور القرآن ذو طبيعة دلالية، مهما تدخلت فيه العمليات التداوليّة، يبدأ أولًا بتفسير الآية تفسيرًا خطيًّا داخليًّا، ثم ينتقل التفسير إلى مستوى ثانٍ يُنظَر إلى النصِّ في وحدته، و تكامله.

"أما كيفية تحديد البنية الكبرى للنص، فإنّه من الملاحظ أن القراء يختارون من النص عناصرَ مهمّة، تتباينُ باختلاف معارفهم و اهتماماتهم أو آرائهم، و عليه يمكن أن تتغير البنيةُ الكبرى من شخص إلى آخر."٦١

ثالثًا- التغريض:

"لما كان الخطاب ينتظم على شكل متتاليات من الجمل متدرِّجة لها بدايةٌ ونهاية، فإن هذا التنظيم، يعني الخطيّة، سيتحكم في تأويل الخطاب بناءً على أن ما يبدأ به الكاتب أو المتكلم سيؤثر في تأويل ما يليه، وهكذا فإن عنوانًا ما سيؤثر في تأويل النصّ الذي يليه. كما أن الجملة الأولى من الفقرة لن تفيد فقط تأويل الفقرة، وإنما بقية النص أيضا"٦٢؛ فالتغريض يقوم على فرض أن "كل جملة تشكل جزءًا من توجيه متدرِّج متراكم يخبرنا عن كيفيّة إنشاء تمثيل مُنسجِم"٦٣. وقد يأتي لمفهوم التغريض هذا مصطلحٌ آخر هو (البناء)، وفي رأي خطابي أنّ "مفهومَي التغريض والبناء يتعلقان بالارتباط الوثيق بين ما يدور في الخطاب وأجزائه وبين عنوان الخطاب أو نقطة بدايته، مع اختلاف فيما يُعتبر نقطةَ بداية حسب تنوُّع الخطابات"٦٤.

إن «مفهوم التغريض ذو علاقة وثيقة مع موضوع الخطاب ومع عنوان النص. تتجلى العلاقة بين العنوان وموضوع الخطاب في كون الأول تعبيرا ممكنا عن الموضوع »٦٥. إن قراءة النص في ظل العنوان المقدم له يُعَد الانطلاقة الأولى لقراءة النص وللولوج إلي دلالاته المتعددة؛ فإن "دلالية العمل هي نتاج تأويل عنوانه"٦٦.

والعنوان في النص القرآني هو اسم السورة، واسم السورة ينهض بدورٍ تأويليٍّ فعّال؛ لأنه يتحكم في تحديد الرؤية، و«اسمُ كلِّ سورة مترجمٌ عن مقصودها، لأن اسمَ كلِّ شيء -تظهر المناسبة بينه وبين مسمّاه- عنوانُه الدالُّ إجمالاً على تفصيل ما فيه» ٦٧، ولذلك «ينبغي النظر في اختصاص كل سورة بما سمِّيت به، ولا شك أن العرب تراعي في الكثير من المسمِّيات أخذَ أسمائها من نادرٍ أو مُستَغْرَب يكون في الشيء من خلق أو صفة تخصُّه أو تكون معه أحكَمَ أو أكثرَ أو أسبقَ لإدراك الرائي للمسمَّى، ويسمُّون الجملة من الكلام أو القصيدة الطويلة بما هو أشهر فيها، وعلى ذلك جرت أسماء سور الكتاب العزيز؛ كتسمية سورة البقرة بهذا الاسم لقرينة ذكر قصة البقرة المذكورة فيها وعجيب الحكمة فيها» ٦٨.

إن لعنوان النص أهميةً كبرى في التماسك النصيّ، فهو «مفتاح الدلالة الكليّة وشفراتها العديدة»٦٩، «فللعنوانُ قيمةٌ إشاريّة تُفيد في وصف النص ذاته»٧٠. فالعنوان بهذا يشكل ركيزةً قويةً في توجيه فهم القارئ لمضمون نصٍّ معيّن، لأن العنوان يعين على "ضبط انسجام النص وفهم ما غمض منه"٧١، ويرسم احتمالات المعنى ويختصر حكمة النص؛ لذلك فهو يُعَدُّ عاملًا قويًا من عوامل بناء النصّ وانسجامه.

رابعًا- المناسبة:

أدرج محمد خطابي علمَ المناسبات كآليّة من آليّات تماسُك سور القرآن؛ فبهذا العلم يمكننا الكشف عن العلاقة بين الآيات القرآنية؛ "إن المناسبة والتناسب بين الآي بحثٌ عن علاقة آية بآية أخرى متقدمة"٧٢؛ فهو علمٌ تُعرَف منه عللُ ترتيبِ أجزاء القرآن؛ فالمفسرون "يبحثون عن المناسبة بين آية وآية حين يبدو للقارئ أن العلاقةَ بين السابقةِ واللاحقةِ منقطعةٌ مما يَستوجبُ تبريرَ موقع الآية من سالفاتها"٧٣، وهذا يعنى أنه لا جدوى من البحث عن المناسبة أو التناسب بين الآيات حين تكون العلاقة واضحة بين الآيات.

ولعلم المناسبات أهميةٌ كبرى في تماسُك النصّ وانسجامه؛ لأنه " يجعل أجزاءَ الكلام آخذًا بأعناق بعض، فيَقْوَى بذلك الارتباط، ويصير التأليفُ حالُه حالُ البناءِ المحكم المتلائم الأجزاء"٧٤. وعلم المناسبات "هو سر البلاغة لأدائه إلى تحقيق إلى مطابقة المعاني لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإحالةُ فيه علىَ معرفة مَقصود السورة، المطلوب فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها"٧٥.

ويتحقق التناسبُ بين أجزاء النص الواحد في وجود "علاقة بين المتناسبين، قد تكون هذه العلاقة ظاهرةً، وقد تكون غيرَ ظاهرة، فيُبْحَثُ عن الدعامة التي يمكن أن تجمع بينهما، إذا عُلِم ذلك، فالمناسبة تُوصِّل إلى العلاقة، وهذه العلاقة بدورها تقتضى مرجعيّة من أحد المتناسبين إلى الآخر، وإذا تحققت هذه المرجعية، تحقق التناسب بينهما؛ وذلك وفق الشكل التالي:

المناسبة ← العلاقة ← المرجعية ← التناسب

خامسًا- تكرار القصة في غير موضع:

نالت قضيةُ تكرار القصص في القرآن الكريم اهتمامَ كثيرٍ من العلماء٧٦، ويعدُّ ابن قتيبة (ت٢٦٧هـ) من أقدم الذين أشاروا إلى تكرار القصص في القرآن الكريم، وقد علَّل ذلك بأن القرآن نزل منجَّماً في ثلاث وعشرين سنةً مراعاةً للأحداث وتخفيفاً عن المسلمين، فقد كانت وفود العرب تأتي إلى رسول الله ﷺ فتعلن إسلامها فيقرئهم المسلمون شيئاً من القرآن فيكون ذلك كافياً لهم، وكان رسول الله ﷺ يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة، فلو لم تكن القصص مكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم وقصة نوح إلى قوم وقصة لوط إلى قوم، فأراد الله بلطفه أن يُشهِر هذه القِصص في أطراف الأرض، ويلقيها في كلِّ سمع، ويثبتها في كلِّ قلب، ويزيد الحاضرين في الإفهام والتحذير. وكررت القصص دون الفروض لأن رسول الله ﷺ كان يرسل كتبه إلى كل قوم بِما فرضه الله عليهم من صلاة أو صوم أو زكاة أو حجٍّ، أما القصص فلم تكن ترسل إلى كلّ قوم٧٧.

ونفهم من هذا أن تكرار القصص القرآني جاء متَّسقًا مع السياق الحالي ففيه مراعاة لحال المخاطبين؛ لأنّهم لا يستطيعون أن يَتَلَقَّوْا النصَّ كلَّه دفعةً واحدةً، فيعوه ويعملوا بمقتضاه، وهم متفاوتون في قدرتهم على ذلك، ففي تكرار القصة في غير موضعٍ ضمانٌ لوصول المضمون إلى جميع المتلقِّين، وهذا ناتج عن رحمة الله ولطفه بعباده.

ذهب ابن فارس إلى أن الله تعالى «"كرَّر ذكر القصة في مواضع، إعلامًا أنَّهم عاجزون عن الإتيان بِمثله بأيِّ نظمٍ جاء، وبأيِّ عبارةٍ عبرَّ"»٧٨.

وقام الزركشي (ت٧٩٤هـ) بجمع آراء السابقين وأفاد منها في حديثه عن تكرار القصص القرآني ٧٩، فهو يرى أن التكرار «إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأول لطول العهد به، فإن أعيد لا لتقرير المعنى السابق لم يكن منه» ٨٠، ويرى أن التكرار يأتي ليقدِّم زيادة في القصة لم تكن وردت من قبل٨١، ويشير إلى أثر التكرار في تماسُك النص، إذ يرى أنه يعني: الإعادة والترديد وهو من أساليب الفصاحة لتعلُّق بعضه ببعض٨٢.

وقد ردّ سيد قطب شبهة تكرار القصة بكامل تفصيلاتها في كل موضع بقوله: " قد يحسب أناس أن هناك تكراراً في القصص القرآني لأن القصة الواحدة قد يتكرر عرضُها في سورٍ شتّى، ولكن النظرة الفاحصة تؤكد إنه ما من قصة أو حلقة قد تكررت في صورة واحدة من ناحية القدر الذي يساق وطريقة الأداء في السياق، وأنه حينما تكررت حلقة كان هنالك جديد تؤديه ينفي حقيقة التكرار "٨٣.

وذكر الشيخ محمد رشيد رضا أنه قد تُكرّر القصة الواحدة في القرآن، ولكن في تكرارها فوائد في كل منها فائدة لا توجد في الأخرى من غير تعارض في المجموع، لأنها لما كانت منزَّلةً لأجل العبرة والموعظة والتأثير في العقول والقلوب؛ اختلفت أساليبها بين إيجاز وإطناب، وذكر في بعضها من المعاني والفوائد ما ليس في بعضها الآخر حتَّى لا تُملَّ ألفاظها ومعانيها، ثُمَّ إن الأقوال المحكية فيها إنما هي معبرةٌ عن المعاني وشارحة للحقائق وليست نقلا لألفاظ المحكي عنهم بأعيانهم، فإن بعض أولئك المحكي عنهم أعاجمُ، ولم تكن لغة العربي منهم كلغة القرآن في فصاحتها وبلاغتها، هذا وإن اختلاف الأساليب وطرق التعبير في قصص القرآن وفي القرآن عموماً عن المعنى الواحد لا تختلف إلا لكي تفيد في فهمها فائدة لفظية أو معنوية٨٤.

رأي الشيخ سيد قطب والشيخ مُحَمَّد رشيد جديرٌ بالاعتبار، فالتكرار إنما أتى في مواضعَ من القُرْآن الكَرِيم كي يستزيدَ المؤمن إيماناً كون التكرار الذي يراه في القُرْآن الكَرِيم يأتي في كلّ مرة بأسلوبٍ جديد، وصياغةٍ جديدة، ومثال ذلك قصة موسى –عليه السلام– في سورة القصص لا تشبه قصته –عليه السلام– نفسها في إطارها العام في سُوْرَة (طه). وسيأتي تفصيلٌ لذلك في موضعه من البحث.

أثر التكرار في تماسك النص وانسجامه:

إن للتكرار أهميةً كبيرةً في التحليل النصي عند علماء اللغة المعاصرين، فهو يرمي إلى تدعيم التماسك النصي، ويوظَّف من أجل تحقيق العلاقة المتبادلة بين عناصر النص٨٥.

ولهذا ينبغي أن يُدرس التكرار في القصص القرآني في ضوء السياق اللغوي ممثلاً في المواضع التي تكررت فيه كل قصة، وفي ضوء السياق الحالي ممثلاً في ترتيب النزول.

إن ذكر القصة الواحدة في أكثر من موضع جاء تلبيةً لمقتضى الغرض الديني من القصص القرآني ومراعاةً للسياق، والدليل على هذا أن القصة لا تُكرَّر كاملة بكل تفصيلاتها في كل موضع تكررت فيه، وإنما تُذكر الحلقةُ المناسبة لغرض السياق في كل سورة، وتبعًا لإطارها العام.

وهكذا فإن ذكرُ القصة القرآنية في أكثر من موضع لا يُعدُّ تكراراً، لأن التكرار يعني إعادة القصة بالألفاظ والمعاني والسياق نفسه، وإنما يسمَّى تكراراً بحسب الظاهر، فأكثر المكررات ظاهراً مختلفة الأساليب متفاوتة الألفاظ، وهذا يعني أنه إذا كانت القصة في كل سورة تحقِّق هدفاً معيناً مرتبطاً بالسياق أو المقام، فلا يُعدُّ ذلك تكراراً في الحقيقة، وإن كان تكراراً في الظاهر٨٦. فقد تُذكر القصة كاملة أو تُذكَر من بدايتها أو وسطها أو آخرها تبعاً لهدف السورة وسياقها العام، وهذا يؤدي إلى التماسك النصي بين القصة وسياقها في السورة، وبينها وبين ما عُرض منها في سور أخر، وقد يقتضي السياق تكرار بعض حلقات القصة بأسلوب مختلف ولأغراض مختلفة تتفق وسياق السورة؛ لأن القرآن الكريم كتاب دعوة، والتناسق بين ما يعرض من القصة والسياق الذي تعرض فيه مقدَّم على غيره.

وإذا قرأنا القصص القرآني على وفق ترتيب النزول فإننا نجد معظم القصص تبدأ بإشارة موجزة تطول شيئاً فشيئاً ثم تُعرَض في حلقاتٍ كبيرة تُكوِّن القصة، ثم تعود الإشارات الموجزة مرة أخرى٨٧.

القسم الثاني- الدراسة التطبيقية

سورة القصص

وصفٌ عام لسُورَةُ الْقَصَص:

يكاد يجمع المفسرون على أن السورة "سُمِّيَتْ سُورَةَ الْقَصَصِ وَلَا يُعْرَفُ لَهَا اسْمٌ آخَرُ"٨٨، ولكن على ما ورد في بعض الروايات أنها تُسمى أيضاً سورة (طسم)٨٩، وفي رأي شاذ تُسمى (سورة موسى)٩٠.

ويكاد يجمع المفسرون –أيضًا- على أن سبب "التَّسْمِيَةِ بِذَلِكَ وُقُوعُ لَفْظ (الْقَصَص) فِيهَا عِنْدَ قَوْلِه تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾"٩١. وقيل: " سُمِّيَتْ بدلالة قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ الدال على نجاة من هرب من مكان الأعداء إلى مكان الأنبياء، اعتباراً بقصصهم الدالة على نجاة الهاربين، وهلاك الباقين بمكان الأعداء، من الهلاك"٩٢.

بتتبع الآراء نرى أن سبب تسمية السورة بالقصص جاء على جهتين: إجمالًا في وقوع لفظ (القصص) فيها، وتفصيلًا في تعدُّد قصصها وهو العنصر الغالب في هذه السورة؛ فالسورة بدأت بقصة فرعون وتعامله مع بني إسرائيل، وانتقلت بلطف من قصة ولادة موسى –عليه السلام- وحال بني إسرائيل في ظل فرعون إلى نشأة موسى في قصر فرعون، وانتقلت إلى سرد قصة ثالثة في حياة موسى الشاب الفتيّ الذي يقتل أحد الأقباط، ثم انتقلت السورة لتصور جزءًا مهمًا في حياة موسى الذى ترك مصر وذهب إلى أرض مدين وإقامته بينهم. ولأن غرض السورة الرئيس هو التسلية للرسول ﷺ وللمؤمنين، كان لابد من الحديث عن عودة موسى إلى مصر نبيًا مرسلًا معضدًا بالمعجزات؛ بشارةً للرسول –صلى الله عليه وسلم- وصحبه بأن العاقبة للمتقين، وانتهت السورة بقصة تتحدث عن نوع آخر من الطغيان هو طغيان المال الذي ينتهي بعقاب الطاغي وهو قارون، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في أربعٍ وخمسين آية من ثماني وثمانين آية؛ أما باقي آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها، وإلى جوار القصص الحديث عن تكذيب المشركين للرسول وللقرآن، والحديث عن بعض مشاهد جزاء المشركين وجزاء المؤمنين يوم القيامة، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير..

وسورة القصص سورة مكية في قول جمهور التابعين. وفيها آية واحدة مدنية، هي قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾. قيل نزلت على النبي -صلى الله عليه وسلم- في الجُحْفة في طريقه إلى المدينة للهجرة تسلية له على مفارقة بلده. و"هذا لا يناكد أنها مكية؛ لأن المراد بالمكي ما نزل قبل حلول النبيء صلى الله عليه وسلم بالمدينة كما أن المراد بالمدني ما نزل بعد ذلك ولو كان

نزوله بمكة.

وعن مقاتل وابن عباس أن قوله تعالى ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ نزل بالمدينة.

وهي السورة التاسعة والأربعون في عِداد نزول سور القرآن، نزلت بعد سورة النمل وقبل سورة الإسراء، فكانت هذه الطواسين الثلاث متتابعة في النزول كما هو ترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في افتتاح ثلاثتها بذكر موسى عليه السلام. ولعل ذلك الذي حمل كتاب المصحف على جعلها متلاحقة. وهي ثمان وثمانون آية باتفاق العادين"٩٣.

آليات الانسجام النصي في سورة القصص

ذكرنا في الجزء السابق من البحث رؤية مقترحة لآليات الانسجام النصي في قصص القرآن، هذه الرؤية تقوم على خمسة عناصر، هي:

- السياق.
- بنية الخطاب.
- التغريض.
- المناسبة.
- تكرار القصة في القرآن.

وسنقوم بتطبيق هذه الآليات على سورة القصص في هذا الجزء من البحث.

١- السياق:

يقوم السياق في سورة القصص على محورين:

- محور التقطيع والهندسة الخارجية للسورة.
- محور سياقات السورة.

أولا- محور التقطيع والهندسة الخارجية:

جاءت سورة القصص كسور القرآن كلًّها مقسمةً إلى وحدات منظمة وفق ترتيب محدد، يربط بينها روابط خفية بُنِي عليها الخطاب في السورة؛ " ومن ثم يقوم كيان السورة على قصة موسى وفرعون في البدء، وقصة قارون مع قومه – قوم موسى – في الختام... وبين القصتين يجول السياق مع المشركين جولات يبصرهم فيها بدلالة القصص – في سورة القصص "٩٤؛ فبنيةُ السورة عند سيد قطب تقوم على أربعة أشواط تحت إطار عام واحد؛ هو إطار قدرة الله وعظمته التي تُسفر لتضرب الظلم والطغيان والبغي ضربةً مباشرة عندما يعجز عن ضربها البشر؛ وتنصر المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة؛ وتُمَكِّن للمعذبين الذين لا حيلة لهم ولا وقاية. وهو المعنى الذي كانت القلة المسلمة المستضعفة في مكة في حاجة إلى تقريره وتثبيته؛ وكانت الكثرة المشركة الباغية الطاغية في حاجة إلى معرفته واستيقانه٩٥، والشكل التالي يوضح أشواط السورة عند سيد قطب:

أشواط السورة الأربعة عند سيد قطب

قصة موسى التعقيب عليها قصة قارون وعد من الله لرسوله

ولم يختلف الإطار العام للسورة عند ابن عاشور عنه عند سيد قطب، فبنية السورة تقوم على العبرة والموعظة؛ ليعلم المشركون سنة الله في بعثه الرسل ومعاملته الأمم المكذِّبة لرسلها، وجاءت سبعة عناصر تحت هذا الإطار؛ هي على ما يأتي٩٦:

افتتاحية	تفصيل ما أجمل في سورة الشعراء	تفصيل ما أجمل في سورة النمل	تحدي المشركين	أدلة وحدانية الله	قصة قارون	خاتمة
التنويه بشأن ا لقر آ ن والتعريض بأن بلغاء المشركين عاجزون عن الإتيان بسورة مثله	من قول فرعون لموسى ألم نربك فينا وليدا إلى قوله وأنت من الكافرين ففصلت سورة القصص كيف كانت تربية موسى في آل فرعون. وبين فيها سبب زوال ملك فرعون	من قوله إذ قال موسى لأهله إني آنست نارا ففصلت سورة القصص كيف سار موسى وأهله وأين آنس النار ووصف المكان الذي نودي فيه بالوحي إلى أن ذكرت دعوة موسى فرعون فكانت هذه السورة أوعب لأحوال نشأة موسى إلى وقت إبلاغه الدعوة ثم أجملت ما بعد ذلك ؛ لأن تفصيله في سورة الأعراف وفي سورة الشعراء. والمقصود من التفصيل ما يتضمنه من زيادة المواعظ والعبر .	بعلم النبيء صلى الله عليه وسلم بذلك وهو أمي لم يقرأ ولم يكتب ولا خالط أهل الكتاب ، ذيّل الله ذلك بتنبيه المشركين إليه وتحذيرهم من سوء عاقبة الشرك وأنذرهم إنذارا بليغا. وفنّد قولهم لولا أوتي مثل ما أوتي موسى من الخوارق كقلب العصا حية ثم انتقاضهم في قولهم إذ كذبوا موسى أيضا. وتحداهم بإعجاز القرآن وهديه مع هدي التوراة. وأبطل معاذيرهم ثم أنذرهم بما حل بالأمم المكذبة رسل الله .	وتحدى المشركين وساق لهم أدلة على وحدانية الله تعالى وفيها كلها نعم عليهم وذكّرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء. وأنحى عليهم في اعتزازهم على المسلمين بقوتهم ونعمتهم ومالهم بأن ذلك متاع الدنيا وأن ما ادخر للمسلمين عند الله خير وأبقى.	ضرب المثل لهم بحال قارون في قوم موسى . وتخلص من ذلك إلى التذكير بأن أمثال أولئك لا يحظون بنعيم الآخرة وأن العاقبة للمتقين .	وختم الكلام بتسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وتثبيته ووعده بأنه يجعل بلده في قبضته ويمكنه من نواصي الضالين.

ثانيا- سياقات سورة القصص:

سياق القرآن:

جاءت سورة القصص منسجمةً ومعبرةً عن أغراض القرآن الكبرى؛ فاشتملت السورة في افتتاحيتها على التنويه بشأن القرآن، وعلى عجز البلغاء عن الإتيان بمثله، قال تعالى: ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ الإسراء ٨٨.

جاء سوق هذه القصة "للعبرة والموعظة ليعلم المشركون سنة الله في بعثه الرسل ومعاملته الأمم المكذبة لرسلها"٩٧، وهي من المعاني التي أكّد عليها القرآن في مواضعَ شتّى، قال تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾الأنعام: ١٣٠ – ١٣١.

كما أنّ السورة ذكرت الأدلة على " وحدانية الله تعالى، وفيها كلها نعمه عليهم، وذكرهم بما سيحل بهم يوم الجزاء"٩٨، وهو غرض القرآن الرئيس في كل نواحيه، قال تعالى: ﴿ وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ البقرة: ١٦٣، وقال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣)﴾. المائدة:٧٣، و قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) ﴾ الحج: ٣٤، و قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) ﴾فصلت: ٦.

سياق السورة:

سورة القصص سورةٌ مكية، نزلت والمسلمون في مكة قلةٌ مُستضعَفة، وقد لاقى الرسولﷺ وأصحابه ألواناً من العذاب، فهناك تشابه واضح بين ظروف المسلمين هذه والظروف التي مرَّ بها موسى -عليه السلام- وقومه؛ فهذا فرعون يعلو في الأرض ويتجبّر على قوم موسى -عليه السلام- يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، فجاءت هذه السورة بأغراض مهمة، منها:

- تقرير قدرة الله في تمكين المستضعفين من المؤمنين، وإهلاك الباطل وأهله.
- تسلية الرسولﷺ وأصحابه وشد أزرهم، ببيان أن أصحاب الرسالات السماوية السابقة جاهدوا وعُذبوا وعانوا حتى أتاهم نصر الله.

سياق المقطع:

يمكننا التماس السياقات التي تدور حول محور السورة، فتحقّق الانسجام في السورة:

- افتتاحية تبينّ قدرةَ الله وإعجاز كتابه: قال تعالى: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)﴾
- بيان سنة الله في كونه، وبيان حال الذين جرت عليهم سنة الله من المستضعفين والمُسْتَضْعَفين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾.
- ثم انتقلت السورة لبيان قصة ولادة موسى – عليه السلام –، وهو ما يرتبط بسياق المُسْتَضْعَفين –وموسى عليه السلام من هؤلاء المُسْتَضْعَفين–، وفي هذا بيان لحسن تدبير الله لعباده المُسْتَضْعَفين. قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ

جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ(١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾.

- ثم تنتقل السورة إلى فترة فُتُوّة موسى عليه السلام وقتله للقبطي، ويظهر تدبير الله عز وجل لموسى –عليه السلام– في إرسال رجل يحذر موسى من الملأ المؤتمرين به، ثم خروج موسى إلى مدين وهو لا يعلم شيئًا عنها، والتقائه ابنتي الرجل الصالح الذي يدعوه لبيته، وبعد أن سمع قصصه طمأنه وبشره بالنجاة من القوم الظالمين. ويتزوج موسى –عليه السلام– من ابنة الرجل الصالح ويقضي في مَدْيَن فترةً قدّرها الله بحكمته، ليعود إلى مصر حاملًا رسالةَ ربه، ولم تستفيض السورة في وصف هلاك فرعون، بل ذكرته مجملًا، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥)... فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)﴾.

- ثم انتقلت السورة تعرض حال الرسولﷺ مع قومه، وهو سياقٌ لا يبتعد عن السياقات السابقة، فحالُ الظالمين هو حالُ الظالمين في كل زمان ومكان، وحال المُسْتَضْعَفين هو حال المُسْتَضْعَفين في كل زمان ومكان، وقدرة الله ووعده بنصر المُسْتَضْعَفين باقيان، قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كَافِرُونَ (٤٨)... وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)﴾.

- وأوردت السورة قصة أخرى هي قصة قارون المناسبة لسياق السورة؛ فإن قارون علا في الأرض كعلو فرعون، والاختلاف بينهما في علو قارون بالمال وعلو فرعون بالحكم والسلطان، مما استوجب إظهار مصيرهما؛ فكان مصيرُ فرعون إلى الغرق وقارون إلى الخسف، لأخذ العبرة والعظة، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)... مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)﴾.

- ويتناسب مع هذه السياقات السابقة سياق الوعد والبشرى لرسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)﴾.

سياق الآية:

يظهر أهمية السياق على مستوى الآية في توجيه المفسرين لمعاني بعض الألفاظ التي ليس هناك ما يرجح دلالة على أخرى لها، ومنها:

- كلمة "فارغاً" في قوله تعالى:﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ١٠]، فقد اختلفوا في توجيه المعنى، يقول ابن عاشور: "وإذ لم يذكر أن فؤاد أم موسى لماذا أصبح فارغا احتملت الآية معاني ترجع إلى محتملات متعلق الفراغ ما هو؛ فاختلف المفسرون في ذلك قديما، ومرجع أقوالهم إلى ناحيتين: ناحية تؤذن بثبات أم موسى ورباطة جأشها، وناحية تؤذن بتطرق الضعف والشك إلى نفسها"[٩٩].

يرى أصحاب التوجه الأول أن المقام يقتضي المدح والثناء على موقف أم موسى، وهذا يستدعي أن يكون المعنى أن فؤاد أم موسى أصبح فارغاً من الهم والحزن والخوف، لأن الله تعالى وعدها برده لها، والمقام عندهم – فيما يبدو – يقتضي هذا التفسير؛ لأنه حديث عن صراع بين الحق والباطل، وأم موسى تمثل طرفاً من جانب الحق في هذه القصة؛ فلا يحسن – والحالة هذه – أن تُوصَف بغير ما ذُكر.

يرى أصحاب التوجه الثاني أن فؤاد أم موسى أصبح فارغاً من الصبر عليه، أو فارغاً من وعد الله تعالى لها، حيث نسيت هذا الوعد،

مما يعنى أنها لم تُبدِ جلداً أو صبراً على فراقه، لولا أن تداركها الله؛ فربط على قلبها١٠٠.

ليس بين أيدينا دليل خارجي يُركن إليه في تقديم معنى على آخر، فليس أمامنا إلا السياق، نحتكم إليه دونما اصطحاب لمقررٍ سابق في الذهن؛ لأنه يلقي بظلاله على دلالة النص لا محالة، وهو ما يمكن ملاحظته عند أصحاب الرأي الأول.

بعد تأمل القصة العام وسياقاتها الخاصة يبدو أن المعنى الثاني هو الأنسب بأحداث القصة، والأنسب لسياقاتها، وندلل على هذا القول بعدة قرائن أذِن بها السياق:

- إن الوحي الوارد في أول القصة إنما هو " وحي إلهام يوجد عنده من انشراح الصدر ما يحقق عندها أنه خاطر من الواردات الإلهية"١٠١. وهذا الوحي لن يمنع من ظهور الخوف على أم موسى، "وقوله: ﴿فإذا خفت عليه﴾؛ لأنه يشعر أنها ستخاف عليه."١٠٢
- صُدِّرت الآية بقوله تعالى (فأصبح)، وهى مستعملة هنا "بمعنى (صار)، فاقتضى تحوُّلاً من حالة إلى أخرى "١٠٣ ، أي: كان فؤادها غير فارغ، فصار فارغاً، وجاء الإخبار عن فراغ فؤادها بعد الإخبار عن إلقاء موسى في الماء؛ فكان من مستتبعاته.
- ورد في الآية أن الله ربط على قلبها، والربط على القلب توثيقه من أن يضعف، كما يشد العضد الوهن، وهذا لا يكون إلا في حالة الخوف والاضطراب، ويؤكده أن علة الربط: كي لا تبدي شيئاً مما من شأنه أن يكشف من أمرها شيئاً، ولكي يحملها على التصديق بوعد الله. ومن التكلف البارد قول بعضهم: إنها كانت تبدي فرحها بما حصل لموسى١٠٤. قال النحاس: "وقول أبى عبيدة: فارغاً من الغم. غلط قبيح؛ لأن بعده:﴿ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾١٠٥ [القصص: ١٠] ومثل قوله قال ابن قتيبة١٠٦، وهنا يظهر الفرق بين منهج من انتزع اللفظة من سياقها، وبين منهج من نظر إليها في ضوء هذا السياق.
- قول أم موسى لأخته "قصيه" يدل على لهفها عليه، وتشوقها إلى معرفة الحال التي آل إليها، وهذا نابع من خوف وقلق، وبين الله تعالى علة رد موسى إلى أمه؛ فقال: ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ [القصص: ١٣]، وهذا يومئ إلى أنها كانت قبل رده محلاً لشيء من البكاء الذي به تسخن العين، وهو عكس قرة العين، وكانت كذلك حزينة على فراقه.

- ونجد من هذا التوجيه للمعنى في داخل السورة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥) ﴾.القصص:٨٥

فقد تعددت الآراء في المقصود (بالمعاد) في هذه الآية نقل ابن كثير هذه الأقوال، فقال: "(لرادك إلى معاد) أي: إلى يوم القيامة... وقال السدي عن أبي صالح، عن ابن عباس: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) ، يقول: لرادك إلى الجنة...وقال الثوري ، عن الأعمش ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس: (لرادك إلى معاد): إلى الموت...وقد روي عن ابن عباس غير ذلك، كما قال البخاري في التفسير من صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل ، أنبأنا يعلى ، حدثنا سفيان العصفري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس: (لرادك إلى معاد)، قال: إلى مكة .

وهكذا رواه النسائيُّ في تفسير سننه، وابن جرير من حديث يعلى - وهو ابن عبيد الطنافسي - به. وهكذا روى العوفي ، عن ابن عباس: (لرادك إلى معاد) أي: لرادك إلى مكة كما أخرجك منها."١٠٧ .

مع تعدد الآراء ليس بين أيدينا دليل خارجي يُركن إليه في تقديم معنى على آخر، فليس أمامنا إلا السياق، نحتكم إليه.

أخذ ابن كثير بالرأي الأول (يوم القيامة)، مستدلا بقوله تعالى: (فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين)[الأعراف: ٦]، وقوله:(يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب) [المائدة: ١٠٩]، وقوله: (وجيء بالنبيين والشهداء) [الزمر:٦٩]١٠٨.

والرأي الذي أميل إليه أن المقصود (بالمعاد) هنا مكة؛ لأن سياق الآية وما تلاها من قوله تعالى: ﴿ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥)﴾.، ويعزز هذا الميل قول ابن قتيبة: "معاد الرجل بلده، لأنه يتصرف في البلاد، ثُمَّ يعود إليه. وفي الآية تقديم وتأخير، والمعنى أن الذي فرض عليك القرآن، أي: جعلك نبياً، ينزل عليك القرآن، وما كنت ترجو قبل ذلك أن تكون نبياً يوحى اليك الكتاب، لرادك إلى مكة ظاهراً قاهراً "١٠٩. ويؤكد هذا الميل سبب نزول هذه الآية؛ "عن الضحاك] قال: لما خرج النبي - صلى الله عليه وسلم - من مكة، فبلغ الجحفة، اشتاق إلى مكة، فأنزل الله عليه : ﴿إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد﴾، إلى مكة. وهذا من

كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية"١١٠.

٢- بنية الخطاب:

تهتم بنية الخطاب بعناصر الخطاب الأساسية (المرسِل، والمتلقي، والرسالة)، وطبيعة بنية الخطاب القرآني تختلف عن أية بنية خطاب أخرى؛ فالمُرسِل لا يختلف فهو الله –عز وجل-، والمتلقي يتعدد ولا يختلف؛ فالمتلقي الأول هو جبريل –عليه السلام- ثم المتلقي الثاني رسول الله –صلى الله عليه وسلم- ثم المتلقي الثالث المسلمون من زمن النبي إلى قيام الساعة.

تتميز البنية الكبرى في النص القرآني بصعوبة التحديد، لأنّه يصعب أن يختزل كلام الله-عز وجل- في جملة واحدة، أو أكثر. و بالرغم من ذلك فقد اتفق المفسرون حول الكثير من القضايا الواردة في النص القرآني، و كان اختلافهم اختلافا جزئيا، لا يمس جوهر البنية الكبرى لكل سورة من سور القرآن الكريم.

يلاحظ بدايةً أنّ البنية الكبرى لسورة القصص ترتبط بالقصص الواردة في الآيات من خلال القواعد الكبرى، وهي كما حددّها (فان دايك): الحذف و الاختيار و التعميم و التراكيب.

لكن البنية الكبرى في السورة ترتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الآيات الكلي تجيب عن سؤال مهم:

عمّ تتحدث الآيات ؟ و ما الهدف منها ؟.

لذلك يمكن اللجوء إلى تلخيص القضايا الواردة في الآيات، من خلال أهم المحاور التي تتطرق إليها، و من خلال الكلمات المفاتيح أيضا.

فنجد أنّ السورة تتميّز بوجود عددٍ من القصص والموضوعات:

قصة موسى

البنية الأولى: قال تعالى: ﴿ طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)﴾. القصص: ٥ وظيفة معرفية.

تترابط القصص والموضوعات التي تضمنتها سورة القصص؛ بحيث بدأت السورة بهذا التحدي بإعجاز القرآن وما في ذلك من إثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم تسليةً وتسريةً له، ثم ذكرت قصة بغي فرعون وتعامله مع المستضعفين من بني إسرائيل والبشارة لهؤلاء المستضعفين بالنصر والتمكين، وفي ذلك ما فيه من تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضي الله عنهم، فبداية السورة و عنوانها يمكن أن يلخصا تيمة النص؛ فمطلع السورة وبدايتها أشارا صراحة إلى البنية الكبرى في هذه السورة، فالوظيفة المعرفية لمثل هذا المطلع أنّه يمنح على وجه مباشر البنية الكبرى للسورة، ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) هكذا دون أن يُتَرك تركيب البنية الكبرى لحس المتلقي فيلجأ إلى عملية الفهم و استيعاب النص، خاصة أنّها أتت على نحو بارز. في بداية قوية، ومطلع فريد.

البنية الثانية: قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾.وظيفة تبليغية تعليمية.

تصوِّر الآيات جانبا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين؛ فالله يُلهم أم موسى –عليه السلام- كيف تنجي ابنها من فرعون، ويبشرها بإعادته لها وجعله مرسلا.

البنية الثالثة: قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (١٥)﴾ وظيفة تبليغية.

تصوِّر الآيات جانبا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين؛ فموسى -عليه السلام- ينجو مرة أخرى من بطش فرعون وملئه، ينجو هذه المرة بمن ينبهه للخطر المحدق به وينصحه بالخروج من مصر.

البنية الرابعة: قال تعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ(٢٢)﴾. وظيفة تبليغية تعليمية.

تصوِّر الآيات جانبا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين؛ فالله يُلهم موسى -عليه السلام- بالتوجُّه إلى مَدْين التي لا يعرف طريقها، ليجد هناك الأمن والاستقرار فترة من الزمن، وهذا لتوكُّله على الله وطلبه الهداية منه.

البنية الخامسة: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩)﴾.وظيفة تبليغية.

تصوِّر الآيات جانبا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين. موسى -عليه السلام- الذي خرج من مصر خائفا يترقب يعود إليها قويا مُحَصنًا من قِبَل رب العالمين.

البنية السادسة: ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣)﴾. وظيفة تبليغية.

تصوِّر الآيات جانبًا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين. هكذا تكون عاقبة المتكبرين الباغين في الأرض، وهكذا تكون نصرة الله لعباده المستضعفين.

البنية السابعة: قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)﴾.وظيفة تعليمية.

أي (اعلم) يا محمد أن الكافرين يتبعون أهواءهم، وفي اتباع الهوى الضلال البعيد.

البنية الثامنة: قال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨)﴾. وظيفة تبليغية.

تصوِّر الآيات جانبا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين؛ فلله العزة والملكوت، هو وحده مالك كل شيء.

البنية التاسعة: قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦)﴾. وظيفة تبليغية.

تصوِّر الآيات جانبا من جوانب قدرة الله ونصرته للمستضعفين، الله لا يهلك من يطغى بالقوة فحسب، بل يهلك من يطغى بالمال -أيضا-.

البنية العاشرة: قال تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)﴾. وظيفة فعلية تعليمية.

النهي والأمر في الآية للرسول ﷺ وللصحابة رضوان الله عليهم من بعده.

هكذا تتابعت هذه القصص والقضايا وفق ترتيب دقيق، يكشف عن هدف الآيات، و بنيتها الكبرى و انسجامها، فهذه القصص رغم تنوعها ترتبط فيما بينها و تتكامل.

إنّ البنية الكبرى لأية سورة تختلف باختلاف التفسير و التأويل و باختلاف المفسرين، و المواقف، والسياقات، إلاّ أنّه اختلاف لا يتجاوز حدود الصياغة في الكثير من الأحيان.

المهم أن انسجام النص في المستوى الدلالي، و انسجام المقاطع في هذه السورة، يتعيّن أيضا من خلال البنية الكبرى لها، ذلك أنّ الانسجام الدلالي الأفقي في سورة القصص، و الانسجام الكلي الذي تبين من خلال البنية الكبرى لها، جعل السورة تبدو كالكلمة الواحدة في تلاحمها و اتساقها، وهو يمثل روح النظم القرآني كله.

٣- التغريض:

إذا كان التناسب بين آيات القرآن الكريم من السمات المميِّزة لانسجامه وإعجازه، فهو أظهر ما يكون في سورة القصص؛ فهو مع ما فيه من تشويق وإثارة يتسم بأنه قصص واقعي يهدف إلى أغراض دينيه بأسلوب معجز يجعل النص بأسره كالكلمة الواحدة.

يَرِدُ القصص القرآني في سورة القصص منسجمًا مع هدف السورة وموضوعاتها، فكما تنسجم القصة مع غيرها من القصص في السورة تنسجم القصص مع سياقها في السورة، القصص القرآنية في سورة القصص متعددة؛ فالسورة بدأت بقصة فرعون وتعامله مع بني إسرائيل، وانتقلت بلطف إلى قصة ولادة موسى -عليه السلام- في ظل طغيان فرعون، ومنه إلى نشأة موسى-عليه السلام- في قصر فرعون، وانتقلت إلى سرد حلقة أخرى في حياة موسى الشاب الفتيّ -عليه السلام- الذي يقتل قبطيا، ثم انتقلت السورة لتصور جزءًا مهمًّا في حياة موسى-عليه السلام- في تركه مصر وذهابه إلى أرض مدين وإقامته بينهم، ولغرض السورة الرئيس الذي هو تسلية للرسولﷺ وللمؤمنين، كان لابد من الحديث عن عودة موسى-عليه السلام- إلى مصر نبيًّا مرسلا مُعَضّدًا بالمعجزات؛ بشارةً لهم بأن العاقبة للمتقين، وانتهت السورة بقصة قارون، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في أربع وخمسين آية من ثماني وثمانين آية؛ ومعظم ما يتبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها. وإلى جوار القصص ورد الحديث عن تكذيب المشركين للرسول وللقرآن، وبعض مشاهد جزاء المشركين وجزاء المؤمنين يوم القيامة، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير..

وتُختم السورة بما بُدئت به، إذ يأتي ذلك التعقيب على القصص القرآني بالعودة إلى الحديث عن معجزة القرآن الكريم وتكذيب المشركين به، وإصرارهم على كفرهم، وهم بهذا لا يختلفون عن تلك الأمم التي نزل بها العذاب، فالكفر ملة واحدة. وقد جاءت نهاية السورة مناسبة لبدايتها فالنصر والغلبة دائما لجند الله ولعباده المستضعفين.

فقصة موسى عليه السلام هنا تعبِّر عن سلسلة من الأحداث الواقعية التي توالت في حلقات أو قصص تربطها وحدة الفكرة والشخصيات والمكان والزمان، فضلاً عما يبرزه السرد القصصي من علاقات لفظية ومعنوية، وما يتركه في المتلقي من تأثيرات وجدانية. تعالج كلُّ قصة موضوعاً معيناً، ويربطها هدف عام يتَّسق مع هدف السورة، ويمتد عبر أحداث القصة فينظُمَها في عقد فني متماسك. وهكذا كان عنوان السورة (سورة القصص) مصرّحا بمحتوى السورة، وبالهدف العام لها.

٤- المناسبة:

البحث في المناسبة بين الآيات والسور ذو أهمية كبرى في إظهار الانسجام النصي في القرآن، وهو أمر ليس باليسير، وقد شعر العلماء والمفسرون القدامى بأهميته وصعوبته في الوقت ذاته، فها هو ذا الزركشي (ت٧٩٤هـ) يذكر أنه «قَلَّ اعتناء المفسرين بهذا النوع لدقته، وممَّن أكثر منه الإمام فخر الدين الرازي، وقال في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[١١١]، ومما يؤكد عناية الرازي بالتناسب قوله عن سورة البقرة: «ومن تأمل في لطائف نظم هذه السورة وفي بدائع ترتيبها عَلِم أن القرآن كما أنه معجز بحسب فصاحة ألفاظه وشرف معانيه، فهو أيضاً معجز بحسب ترتيبه ونظم آياته، ولعل الذين قالوا إنه معجز بحسب أسلوبه أرادوا ذلك إلا إني رأيت جمهور المفسرين مُعرِضين عن هذه اللطائف غير متنبِّهين لهذه الأمور»[١١٢].

إن المناسبة بين آيات القرآن الكريم وسوَره ظاهرة بارزة لا يمكن تجاهلها عند تفسيره، إذ يجب التعامل معه بوصفه كلاً متكاملاً مترابطاً، ولا يخلُّ بترابطه كونه نزل منجَّماً على وفق الأحداث والوقائع، وقد ذكر الزركشي هذا الإشكال والرد عليه، فقال: «"قال بعض مشايخنا المحققين قد وهم من قال لا يُطلب للآي الكريمة مناسبةٌ لأنَّها على حسب الوقائع المتفرقة، وفصلُ الخطاب أنَها على حسب الوقائع تنْزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً، فالمصحف كالصحف الكريمة على وفق ما في الكتاب المكنون مرتبةٌ سورُه كلُّها وآياتُه بالتوقيف ... ومن المعجز البيِّن أسلوبُه ونظمُه الباهر، فإنه ﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١)﴾.هود: ١ قال: والذي ينبغي في كل آية أن يُبحث أولَ كلِّ شيءٍ عن كونها مكمِّلةً لما قبلها أو مستقلةً، ثم المستقلة؛ ما وجهُ مناسبتِها لما قبلها؟ ففي ذلك علمٌ جَمٌّ. وهكذا السور يُطلب وجهُ اتصالِها بما قبلها وما سيقتْ له»[١١٣].

وعلى هذا فالسؤال عن المناسبة له عدة جوانب، نذكرها بتفصيلها فيما يأتي:

• **التناسب بين سورة القصص وما قبلها وما بعدها:**

إذا نظرنا إلى موقع سورة القصص في القرآن نجد أنها تقع بين سورة النمل قبلها وسورة العنكبوت بعدها.

بين سورة النمل وسورة القصص:

هناك علاقة قوية بين بدايات سورة النمل وبدايات سورة القصص:

- بافتتاحهما معا بالأحرف المقطعة التي تكاد تتطابق.
- ثم التشابه الكبير بين الآية الثانية في سورة القصص مع بقية الآية الأولى في سورة النمل.
- ثم يأتي أخيرا التناسب بين المطلعين في حديثهما السورتين معاً عن تلاوة القرآن، قال تعالى: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١)﴾. النمل: ١، وقال تعالى: ﴿طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)﴾.القصص: ١ – ٣.

ولا تغيب الوشائج القوية بين ختام سورة النمل وبداية سورة القصص:

- فالحديث عن تلاوة القرآن موجود أيضًا في ختام سورة النمل، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ (٩٢)﴾. النمل: ٩٢.
- ويأتي الحديث عن شكر نعم الله صريحا في ختام سورة النمل، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾. النمل: ٩٣، ويأتي الحديث عن شكر نعم الله مُضَمَّنًا سببها في بدايات سورة القصص، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾. القصص: ٥.
- وتتناسب نهاية سورة النمل، قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾. النمل: ٩٣، فعلم الله وعدم غفلته في سورة النمل يناسبها علمه بأفعال فرعون في سورة القصص، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾. القصص: ٤

بين سورة القصص وسورة العنكبوت:

بتأمُّل خواتيم سورة القصص وبدايات سورة العنكبوت نجد تشابهاً كبيرًا، وتناسقاً وتناسبًا وانسجامًا في المعنى والمبنى والمضمون والسبك والصياغة فكأن أوائل سورة العنكبوت امتداد لأواخر سورة القصص:

- الحديث عن الردِّ إلى الله في سورة القصص قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥)﴾. القصص: ٨٥، في رأي من فسر المعاد هنا بالموت او بيوم القيامة، يتناسب وقوله تعالى في سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥)﴾. العنكبوت: ٥
- الحديث عن الفتنة والنهي عن الصد عن آيات الله في سورة القصص قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)﴾.القصص:٨٧، يتناسب وقوله تعالى في سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) ﴾. العنكبوت: ٢
- الحديث فناء كل شيء في نهاية سورة القصص، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾. القصص: ٨٨، يتناسب وقوله تعالى في سورة العنكبوت، قال تعالى: ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٥)﴾.العنكبوت: ٥

وبذلك كله يستقيم لنا ترابط سورة القصص وانسجامها وتناسقها وتناسبها مع أواخر ما قبلها (سورة النمل) ومع أوائل ما بعدها (سورة العنكبوت)، وذلك بعض أوجه الإعجاز القرآني، لأنه مما يرد على أولئك القائلين باضطراب النصّ القُرْآنيّ في انتقال الخطاب، فسُوَرَة الْقَصَصِ في تناسبها أوجدت انسجامًا ووحدة في الموضوع في أوائلها وأواخرها.

كل هذا يؤكد أن القرآن الكريم قطعة واحدة، في الانسجام السبك والصياغة والبلاغة، ولعل هذا أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم التي طالما نبه عليها المفسرون والمتكلمون واللغويون.

• **التناسب بين بداية السورة وخاتمتها:**

من سنن العرب في نظم كلامهم أن يوازنوا بين مطلع الكلام ونهايته؛ وذلك طلبا لاستقامة الكلام، فلا يخرج أوله عن آخره، ولا آخره عن أوله، وقد جاء القُرْآن الكَرِيم على سنن العرب في كلامها في فنونه البديعة، وأفانينه البلاغية البيانية، وكان من ذلك أن يستقيم المعنى في أول السورة وآخرها.

- الحديث عن القرآن وأنه منزل للرسول في بداية السورة، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢)﴾. القصص:٢ ، هذا يتناسب مع النهي عن الصد عنه قال تعالى: ﴿ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧)﴾ .القصص:٨٧
- ذكرُ علو فرعون وإفساده فيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾. القصص: ٤ هذا يتناسب مع وصفهم بالخاطئين، قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)﴾.القصص: ٨
- ذكرُ المن على المستضعفين قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾.القصص: ٥ يتناسب مع جزاء هؤلاء، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾. القصص:٨٣
- ذكرُ علو فرعون وبغيه بالسلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤)﴾. يتناسب وعلو قارون وبغيه بالمال قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى (٧٦) ﴾. القصص: ٧٦
- ذكرُ رد موسى إلى أمه، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾.القصص: ٧، يتناسب مع وعد الله لرسوله بالردّ إلى مكة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥)﴾. القصص: ٨٥
- ذكرُ جَعلِ المستضعفين هم الوارثون، قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) ﴾. القصص: ٥ يتناسب مع رد الرسول إلى مكة، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾. القصص: ٨٥
- قال تعالى: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣)﴾.القصص:٣ يتوافق و قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾. القصص: ٨٦؛ لأن التلاوة الإلهية متعلقة بما ألقي على رَسُول الله ﷺ من الكتاب المتلوّ رحمة.
- قوله تعالى: ﴿ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) ﴾.القصص: ٣، موافق في دلالته المتناسقة مضمونياً مع قوله تعالى: ﴿ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨) ﴾. القصص: ٨٨، لأن من صفات المؤمنين أنهم يؤمنون برجوعهم لله سبحانه وتعالى، وهذا اتساق في المعنى.
- قوله تعالى في فاتحة سُوْرَة الْقَصَص: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(٥)﴾.القصص: ٥ متعلقة في كون الإمامة هاهنا إمامة دعوية، أي: أئمة يدعون إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وهو ما عبّرت عنه الآية القرآنية في خاتمتها، قال تعالى: ﴿ا وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)﴾.القصص:٨٧، لأن الدعاة إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هم أئمة الهدى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فصفات الدعاة إلى الله تعَالَى بينت في سُوْرَة الْقَصَص، في أولها وفي آخرها.
- ذكر صفات المؤمنين في أولها كانت: الإيمان: ﴿نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) ﴾.
الوراثة: ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥)﴾.

- التمكين في الأرض: ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (٦) ﴾.

ثم نجد في خاتمة السورة أن صفات المؤمنين هي:

الإيمان: ﴿ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)﴾.القصص:٨٧

الوراثة: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَاد ﴾. القصص: ٨٥

التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣)﴾. القصص:٨٣

وبهذا يكون أول السّورة مترابطاً كلّ الترابط مع آخرها, ومتناسباً معه بما يجعل من داخل السورة وحدة متكاملة في مبناها ومعناها, وهو بعض أوجه الإعجاز القُرآنيّ.

• التناسب بين القصص في السورة الواحدة

ورد في سورة القصص أكثرُ من قصة، وتبدو المناسبة بينها واضحة، فالتأمل في سياق كل قصة وفي سياق السورة العام وفي سياق الحال يهدي إلى معرفة التناسب بين تلك القصص؛ إذ يُعدُّ القصص قَوامها، لكنه لا يستقلُّ بذاته، بل يجيء مصدِّقاً للحقائق الكبرى التي تقررها السورة، وتتلخص في تقرير العبودية لله وتقرير أنه مصدر القوة والعزة، وأن الله وحده هو الذي يمنح النصر والغلبة للمستضعفين، وهو ما أجملته السورة في بدايتها.

ومما يؤكد التناسب بين القصص في سورة القصص أنَها اتبعت خط سير التاريخ، فبدأت بالحديث عن علو فرعون واستكباره في الأرض ومظاهر ذلك، ثم الحديث عن ميلاد موسى ومحاولة تجنيب موسى مصير أبناء بني إسرائيل الذكور بإلقائه في اليم، ونجاته بيد جنود فرعون ونشأته في بيت فرعون، ثم الحديث عن موسى الشاب الفتيّ وقصته مع القبطي، ثم الحديث عن خروج موسى من مصر هربا بنفسه من بطش فرعون وجنوده، ثم الحديث عن موسى لما وصل ماء مدين بعد فراره من مصر وحواره مع ابنتي الرجل الصالح، ثم الحديث عن استقرار موسى بعد زواجه في أهل مدين عشر سنوات، ثم الحديث عن عودة موسى وأهله إلى مصر وتكليفه بالرسالة ودعمه بالمعجزات، وشد عضده بأخيه هارون، ثم الحديث عما دار بينه وبين فرعون ورفض فرعون لدعوته، وعاقبة هذا الرفض الغرقُ، ثم تحدثت الآيات عن موقف أهل الكتاب والمشركين من دعوة الرسول ﷺ، وانتقلت الآيات بعد ذلك لتقص علينا قصة قارون وهي صورة أخرى للطغيان، ولكنه هنا طغيان المال. وهذا يعني أن ترتيب الأحداث في السورة جاء متفقاً مع ترتيبها في الواقع، أي إن السياق التاريخي له أثر كبير في بيان التناسب والانسجام النصي.

وكما بُدئت السورة بإجمال هدفها وموضوعها خُتِمت بمثل ما بُدِئت به من عبادة الله وحده والرُّجوع إليه فهو القادر على نصر المستضعفين وتورثيهم الأرض، «وهكذا يلتقي جمال التنسيق الفني في البدء والختام، والتناسق بين القصص والسياق بكمال النظرة والفكرة والاتجاه في هذا القرآن، ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً»١١٤.

٥- التكرار:

ذكرنا إن للتكرار أهميةً كبيرةً في التحليل النصي عند علماء اللغة المعاصرين، «فهو يرمي إلى تدعيم التماسك النصي، ويُوظَّف من أجل تحقيق العلاقة المتبادلة بين عناصر النص»١١٥.

ولعل أفضل مثال على تكرار القصص القرآني وعلاقته بالسياق قصة موسى –عليه السلام- فهي أكثر القصص تكراراً في القرآن الكريم، إذ تكررت في أكثر من ثلاثين موضعاً، وامتدت خيوطها في كثير من سور القرآن الكريم، ولابدّ من تتبُّع مواضع ذكر القصة للوقوف على علاقة كلٍّ موضع بالسياق الذي جاء فيه، وبيان أثر ذلك التكرار في تماسك النص القرآني.

يأتي أول ذكر لقصة موسى –عليه السلام- في سورة البقرة١١٦ في سياق تذكير بني إسرائيل بنعم الله عليهم، والقصة هنا لم تتطرق إلى مولد موسى–عليه السلام- ولا تكليفه بالرسالة ولا حواره مع فرعون، وإنّما تناولت مواقف بني إسرائيل من موسى–عليه السلام-،

وذكرت قصة البقرة التي تصور تلكُّؤ بني إسرائيل عن تنفيذ أوامر الله، وكثرة أسئلتهم وجدالهم لنبيهم –عليه السلام–، وهذا يتفق مع سياق السورة، فهي مدنية، والخطاب يشير فيها إلى اليهود.

ثم تأتي حلقة ثانية من القصة في سورة المائدة١١٧، إذ يُذكِّر موسى–عليه السلام– قومَه بنعم الله عليهم. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠)﴾. المائدة: ٢٠ ، ثم يأمرهم بدخول الأرض المقدسة، لكنهم يقفون على بابها مصرِّحين بجبنهم وأنّهم لن يدخلوها حتى يخرج منها القوم الجبارون، ولايقف الأمر عند هذا الحد بل يطلبون من موسى وربِّه أن يذهبا للقتال ويظلوا قاعدين. قال تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ (٢٤) ﴾. المائدة: ٢٤ ، فلا يملك موسى–عليه السلام– سوى أن يلجأ إلى الله، ويتبرأ منهم، فيكون جزاؤهم من الله التّيهَ في الأرض أربعين سنة، وهي نهاية مناسبة لسير الأحداث وترتيب القصة على وفق النُّزول.

في سورة الأعراف١١٨ يأتي أول تفصيل لقصة موسى–عليه السلام–، فقد بدأت بخبر موسى –عليه السلام– مع فرعون ودعوته لقبول رسالته. وذكرت خبر موسى –عليه السلام– مع السحرة وإيمانهم بموسى، وعقاب فرعون السحرة، وتهديده لموسى –عليه السلام– وبني إسرائيل، وعقاب الله لفرعون وملئه، وذكرت السورة نعم الله على بني إسرائيل وعدم شكرهم إياها، ثم خروجهم من مصر، وعدم الاعتبار بإنْجائهم وإغراق فرعون وملئه، وفتنتهم بالعجل، وطلب موسى من ربه رؤيتَه، ثم عودته إلى قومه وقد عبدوا العجل، ثم اختياره سبعين رجلاً لميقات ربه لتكون نهاية القصة بطلب المغفرة والرحمة.

ويلاحَظ أن قصة موسى جاءت في الأعراف في سياق قصص نوح وهود ولوط وشعيب، وهذه القصص تتفق وقصة موسى في الهيكل العام، فالنبي يرسَل إلى قومه فينذرهم ويدعوهم إلى الله فيكذبوه فيأتي عقابهم العاجل من الله.

ثم جاءت القصة في سورة يونس١١٩، وفيها عرض موجز لما ذكر في سورة الأعراف من تبليغ فرعون وقومه بالرسالة وتكذيبهم لموسى –عليه السلام– واستعانتهم بالسحرة، ثم انتهاء مصيرهم بالغرق والتمكين لبني إسرائيل، ويظهر في هذه القصة موقف لم يذكر في غيرها وهو إعلان فرعون إيمانه بما آمنت به بنو إسرائيل عند شعوره بنهايته، قال تعالى: ﴿ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠)﴾. يونس: ٩٠ ، وعدم قبول الله هذه التوبة.

وهذة الحلقة من القصة تتسق مع موضوع السورة وهدفها، فسورة يونس يَغْلب عليها مواجهة موقف المشركين من رسول الله ﷺ وأصحابه، وهذا الموضوع تعالجه القصص الأُخَرُ في السورة، فالرسالات كلها متحدة المصدر والمحتوى والغاية.

وفي سياق مهمة الرسل في هداية أقوامهم تأتي إشارة موجزة لقصة موسى –عليه السلام– في سورة إبراهيم١٢٠، فتَذْكُر طلب موسى من قومه تَذكُّر نعم الله عليهم فقد أنجاهم من بطش فرعون وملئه الذي وصل إلى قتل الذكور وإحياء الإناث، وما في ذلك من بلاء عظيم.

وفي سورة الإسراء١٢١ إشارة سريعة إلى إرسال موسى –عليه السلام– بالآيات التسعة، وتكذيب فرعون ووصفه لموسى بالمسحور، وتنتهي القصة بغرق فرعون والتمكين لبني إسرائيل.

ثم تأتي حلقة جديدة ومتفردة للقصة في سورة الكهف ١٢٢؛ إذ تعرض قصة موسى مع العبد الصالح ولم تعرض هذه الحلقة في غير سورة الكهف؛ لأنّها تحقِّق غرض السورة وتتفق مع سياقها، فسورة الكهف تَرمي إلى تصوير علم الله الواسع واختصاصه سبحانه بعلم الغيب.

ثم تأتي إشارة سريعة للقصة في سورة مريم، وتقتصر الإشارة هنا على موضوع التكليف بالرسالة ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)﴾. مريم: ٥١ – ٥٣

ثم جاءت القصة مفصَّلة في سورة طه١٢٣، وبدأت بحدث تكليف موسى بالرسالة بداية من رؤيته للنار وتكليم الله إياه، وتأييده بالمعجزات وطلبه من ربه أن يرسل معه أخاه هارون نبيًّا، وتذكير الله لموسى بنعمته عليه في مولده، وكيف أن الله أنجاه من بطش فرعون ومن الغرق في البحر، ثم تعرض تبليغ الله موسى وهارون تفاصيل الرسالة، وبعد ذلك ينتقل الحديث إلى مجلس فرعون فيدور الحوار بين ثلاثتهم، ثم يأتي مشهد السحرة ومشهد غرق فرعون، وامتنان الله على بني اسرائيل، وتتفرد سورة طه بالتصريح باسم السامري الذي

صنع العجل، وذكرت الحوار الذي دار بينه وبين موسى، ويمكننا ملاحظة اختلاف أسلوب عرض القصة في هذه السورة واختلاف تناولها للأحداث.

ثم تأتي إشارة سريعة للقصة في سورة المؤمنون١٢٤، وتقتصر الإشارة هنا على حدث تكليف موسى وهارون بالرسالة، وتكذيب فرعون وملئه لهما، وتفرّدت السورة بذكر حجة تكذيبهم لموسى وهارون؛ قال تعالى: ﴿فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧)﴾. المؤمنون: ٤٧، ثم بينت أن الهلاك عاقبة هذا التكذيب.

ثم تأتي إشارة موجزة في سورة الفرقان توجز موضوع الرسالة والعذاب في آيتين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) ﴾.الفرقان: ٣٥ – ٣٦

وجاءت القصة مفصّلة –أيضًا– في سورة الشعراء١٢٥، وتضمّنت الحديثَ عن التكليف بالرسالة والتكذيب بها، وما كان من غرق فرعون وملئه بسبب تكذيبهم وإيذائهم موسى–عليه السلام– ومن معه من المؤمنين، ونجاة موسى وبني إسرائيل. وإلى هنا نرى أن هذه الأحداث ذكرت من قبل في سورة الأعراف ويونس وطه، ولكن الاختلاف في صورة عرض القصة في هذه السور؛ فقد عرضت في كل في موضع من الجانب الذي يناسب السياق، وبالطريقة التي تتفق مع المقام، وكان التركيز في كل موضع على نقطة بعينها، ففي سورة الأعراف بدأ السياق بمشهد المواجهة بين موسى وفرعون، وعرض مشهد السحَرة موجزاً، وتوسع في عرض مؤامرات فرعون وملئه وعرض معجزات موسى، واستطرد مع بني اسرئيل بعد أن جاوزوا البحر في حلقات كثيرة، أما سورة الشعراء فتنتهي فيها القصة بغرق فرعون وملئه ونجاة موسى ومن معه، وفي سورة يونس بدأت بمشهد المواجهة بين موسى –عليه السلام– وفرعون مختصراً فلم ترد فيه معجزتا اليد والعصا، واختصر كذلك في مشهد المباراة بين موسى –عليه السلام– والسحرة، في حين توسّع في كليهما في سورة الشعراء، وفي سورة طه توسّع في موضوع المناجاة والتكليف بالرسالة، وامتدت القصة إلى مابعد الغرق وفصلت الحديث عن بني اسرائيل وعلاقتهم بموسى، وموقفهم من الرسالة، وهذا مالا نجده في سورة الشعراء.

وتفرَّدت سورة الشعراء بالإشارة إلى تذكير فرعون لموسى بقتله القبطيّ، وكذلك حادث إنفلاق البحر. وقد جاءت القصة متناسقة مع موضوع السورة واتجاهها إلى بيان عاقبة المكذّبين، وتعزية الرسول ﷺ عما يواجهه من إعراض المشركين وتكذيبهم، فكانت متسقة مع هدف السياق١٢٦.

ثم ذكرت القصة في سورة النمل١٢٧، وبدأت مباشرة من تكليف موسى –عليه السلام– بالرسالة وتأييده بالمعجزات، ثم انتقلت إلى موقف فرعون وقومه من الرسالة واتهامهم موسى بالسحر، وعاقبة ذلك. وهذه الحلقة من القصة جاءت متسقة مع السياق الذي ذكرت فيه، إذ ذكرت بعد قوله تعالى مخاطباً الرسول ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)﴾.النمل: ٦، فهو يتلقَّى القرآن الكريم من الحكيم العليم ويكلَّف بالرسالة كما تلقى موسى قبله الرسالة، وما لاقاه من أذى قومه يشبه ما لاقاه موسى –عليه السلام– من فرعون وقومه.

ثم تأتي القصة في سورة القصص بعد آيتين فقط من بدايتها١٢٨، وتنفرد هذه القصة بأنّها تبدأ من أول حلقة في قصة موسى وهي حلقة ميلاده –عليه السلام–، في حين كانت تبدأ –غالباً – في السور الأُخر من حلقة الرسالة، وهذا يتناسب مع هدف هذه السورة، ففيه بيان لسنة الله في القضاء على الطغاة الذين يبغون الفساد في الأرض، فهذا فرعون الطاغية المستبد قد جعل الله نهايته على يد مولود ضعيف تربَّى في بيته، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)﴾.القصص: ٤ – ٦، وبعد إيراد خبر مولده وما أحاط به من مصاعب ومخاوف وما رافقه من رعاية الله وحفظه لموسى انتقل السياق إلى حلقة جديدة أخرى وهي حلقة شبابه وقتل القبطي، وتآمُر فرعون وملئه عليه، وخروجه من مصر هربا بنفسه إلى مدين، ولقاؤه الرجل الصالح وزواجه من ابنته، والبقاء فيها مدة سنوات الخدمة، ثم جاءت حلقة العودة إلى مصر والتكليف بالرسالة، ثم حلقة مواجهة فرعون التي انتهت بنجاة موسى –عليه السلام– وغرق فرعون، وقد عُرضت هذه الحلقة عرضاً موجزاً سريعاً١٢٩.

ثم تأتي إشارة سريعة في سورة الصافات١٣٠ إلى نعمة الله على موسى وهارون بهدايتهما، واصطفائهما للرسالة، وحمايتهما من فرعون وملئه، ونصرهما عليهم.

ثم تأتي سورة غافر لتعرض حلقة جديدة من قصة موسى١٣١ لم تُذكر في أيَّة سورة أخرى، إذ تبدأ القصة بإشارة إلى إرسال موسى –عليه السلام– إلى فرعون وقومه وتكذيبهم، ثم تنتقل إلى توعُّد فرعون بقتل موسى ولجوء موسى إلى الله ليحميَه، وظهور رجل من آل فرعون يكتم إيمانه فيعترض على قتل موسى وينصح قومه وينذرهم من عقاب الله، ثم تختم القصة ببيان مصير آل فرعون في الآخرة، قال تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٥) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦)﴾.غافر: ٤٥ – ٤٦، وهذا المصير لم يُذكر في غير هذا الموضع.

وفي سورة الزخرف١٣٢ إشارة موجزة أخرى للقصة؛ فتصور إرسال موسى –عليه السلام– إلى فرعون وملئه وتصوِّر الآيات مشهد التكذيب بشكل آخر، فهم لايكتفون بالتكذيب وإنما يسخرون من موسى ومما جاء به من آيات بينات؛ وتصوِّر الآيات عقاب الله الذي نزل بهم واستغاثتهم بموسى وتعهُّدهم بالاهتداء، لكنهم ينكثون عهدهم، وتنفرد هذه السورة برأي فرعون في موسى قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ (٥٢) فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (٥٣)﴾.الزخرف: ٥٢ – ٥٣

وفي سورةالذاريات١٣٣ إشارة سريعة إلى الإرسال والتكذيب والغرق، وهذه الإشارة تتناسب مع سياق السورة الذي يعرض –بإيجاز– مصائر الأمم البائدة.

وفي سورة الصف إشارة سريعة أخرى لاستنكار موسى إذاء قومه له مع علمهم بحقيقة رسالته، وعاقبة ذلك، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥)﴾.الصف: ٥

وفي سورة النازعات عرض موجز لبعض أحداث القصة١٣٤ بصورة مختصرة؛ إذ تبدأ من حلقة تكليف موسى بالرسالة، وقيامه بدعوة فرعون، والتكذيب بالدعوة، وتُختَتَم ببيان مصير فرعون وملئه بسبب تكذيبهم وظلمهم. وقد جاءت هذه القصة في شكل جمل قصيرة، وبإيقاع قوي يتناسب وجوَّ السورة، وكأن هذه السورة تعرض لخلاصة القصة بعرض أهم أحداثها، وهو ما يتناسب مع آخر سورة تُعرض بها القصة.

وورد الحديث عن قصة موسى –عليه السلام– بإشارات موجزة١٣٥ في مواضعَ أخرى من القرآن لا تعدو أن تكون إخبارًا بنبأ الإرسال.

من خلال هذا العرض لتعدد مجيء القصة في مواضع عدة من القرآن نلاحظ أنَّ هذا التعدد

لايعدو أن يكون إشارات وعظية اقتضاها السياق، أما حلقات القصة الأساسيه فلم تكرّر تقريباً، وإذا كرِّرت حلقة فيها جاءت بشيءجديد١٣٦، وهذا يعني أنه لا يوجد تكرار مطلق في القصص القرآني.

كما نلاحظ أن من أهم فوائد التكرار إيجاد الانسجام النصي، فإذا ذُكرتْ حلقةٌ من قصة في سورة ما فإنّها تشير إلى بقيّة الحلقات في السور الأُخر، فقد تذكر القصةُ مولد النبي أو تكليفه بالرسالة – مثلاً– في سورة معينة فيثير هذا في ذهن المتلقي أحداث القصة في السور الأخرى، وقد أشرنا فيما سبق إلى أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى إيجاد وشائج بين القصص المختلفة من خلال اختيار الحلقات المتشابهة من كل قصة، فضلاً عن التماسك بين القصة وهدفها والموضوعات المذكورة فيها.

الخاتمة

تناول هذا البحث آليات الانسجام النصي في قصص القرآن تطبيقا على سورة القصص، ولطبيعة البحث فقد قُسِم إلى قسمين:

القسم الأول – ويشمل الدراسة النظرية، فتناول مصطلح الانسجام وما يوازيه من مصطلحات، وتناول آليات الانسجام: السياق، وموضوع الخطاب، والتغريض، والمناسبة والتكرار.

القسم الثاني– الدراسة التطبيقية وتم فيه تطبيق آليات الانسجام على سورة القصص.

وقد خرج البحث بعدد من النتائج، هي على ما يأتي:

١- القرآن الكريم قطعة واحدة، في السبك والانسجام والصياغة والبلاغة، وهذا أحد أوجه إعجاز القرآن الكريم التي طالما نبه عليها المفسرون والمتكلمون واللغويون.

٢- إن وحدة القرآن تتجلى في تنوعه، و المعرفة الدقيقة بالقرآن تقودنا إلى الاقتناع أن تعدد المواضيع المطروحة، مرتبط بوحدة المجموع، حتى إنه يمكن القول إن القرآن في تلاحمه و انسجامه ووحدته كالكلمة الواحدة، لأن انسجامه خفي.

٣- أثبت البحث أن لدلالة السياق أهمية كبرى في تعليل اختيار الألفاظ والصيغ، فلكل لفظٍ أو صيغة في القرآن الكريم دلالة خاصة يقتضيها السياق.

٤- دراسة القصص القرآني في ضوء السياق تكشف بما لا يدع مجالاً للشك في أن كل حلقة من حلقات كلِّ قصة ذكرت في مكانِها المناسب، وأن معنى السورة ومقصودها لا يتحقق إلا بذكر تلك الحلقة، فضلاً عن مناسبة أسلوب العرض لسياق السورة.

٥- إنّ دلالة السياق تكشف عن خِصِّيصة من أهم خصائص الإعجاز القرآني، وهي ذلك التناسق العجيب بين الترتيب الزمني على وفق ترتيب النُّزول، وترتيب المصحف، وهذا التناسق يقودنا إلى القول: إن كل قصة قرآنية -وإن توزعت في سور كثيرة - يربطها خيط دقيق من التماسك والانسجام، بحيث يشكِّل كتلة واحدة متكاملة.

٦- أثبت البحث أنَّ فهم قصد الشارع في القرآن الكريم عامة وفي القصص القرآني خاصة لا يحصل على الوجه الأكمل إلا بمراعاة حال المخاطِب، والمخاطَب، وموضوع الخطاب، وغرضه، ومكان النزول وزمانه، وأسبابه، وكل ما يحيط بالنص من ظروف وملابسات.

٧- أسهم موضوع الخطاب في إدراك تماسك النص عندما عادت الأحداث الأساسية إلى ذلك الموضوع والغرض.

٨- أسهمت البنية الكبرى في سورة القصص في تعيين انسجام النص في المستوى الدلالي، و انسجام المقاطع، ذلك أنّ الانسجام الدلالي الأفقي في السورة، و الانسجام الكلي الذي تبين من خلال البنية الكبرى لها جعل السورة تبدو كالكلمة الواحدة في تلاحمها و اتساقها، وهو يمثل روح النظم القرآني كله.

٩- إن لعنوان النص أهميةً كبرى في التماسك النصيّ، فهو يشكل ركيزةً قويةً في توجيه فهم القارئ لمضمون نصٍّ معيّن، لأن العنوان يعين على "ضبط انسجام النص وفهم ما، فكان عنوان السورة (سورة القصص) مصرّحا بمحتوى السورة، وبالهدف العام لها.

١٠- إن البحث في المناسبة بين الآيات والسور ذو أهمية كبرى في إظهار الانسجام النصي في القرآن، وقد وجد الباحث أن القرآن لا يمكن أن تُسبر أغواره، أو تتكشف دلالاتُه على الوجه الأمثل إلا بمراعاة المناسبة والعلاقات بين آياته وسوره.

١١- أثبتَ البحثُ دورَ التناسب أو المناسبة في تماسك النّص من خلال:

التناسب بين سورة القصص وما قبلها وما بعدها، والتناسب بين بداية السورة وخاتمتها، والتناسب بين القصص في السورة الواحدة.

١٢- أضافَ البحثُ وسيلةً جديدةً من وسائل الانسجام النّصي هي (التكرار)، فالنظر إلى القصة القرآنية في ضوء ترتيب النزول، يكشف عن أثر تكرار القصص في انسجام النص القرآني؛ فإذا ذُكرتْ حلقةٌ من قصة في سورةٍ ما فإنّها تشير إلى بقيّة الحلقات في السور الأُخر، فقد تذكر القصةُ مولد النبي أو تكليفه بالرسالة - مثلاً- في سورة معينة فيثير هذا في ذهن المتلقي أحداث القصة في السور الأخرى.

المراجع والمصادر

١ – مادة (سَجَمَ) القاموس المحيط، لمجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، ط٨(١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م)، ص ١١١٩.

٢ – مادة (سَجَمَ) لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة٣ – ١٤١٤ هـ. ج١٢/ص٢٨٠.

٣ – معجم المحيط لأديب اللجمي وآخرين،

http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D%AA%vD%٩٠%٩D%٨٦%٩D%٨B%٣D%٨AC%D%٨A%vD٨٥%٩/

٤ – علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، لصبحي إبراهيم الفقي، دراسة تطبيقية على السور المكية، دار قباء للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ (١٤٢١-٢٠٠٠)، ج١/ص٩٦.

٥ – النص والخطاب والاتصال، للدكتور محمد العبد، طبع الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، القاهرة ط١ (٢٠٠٥) ص١٠١.

٦ – النص والخطاب والإجراء، لروبرت دي بوجراند، ترجمة تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط١ (١٤١٨هـ-١٩٩٨م) ص ١٠٣.

٧ – دينامية النص، تنظيم وإنجاز، للدكتور محمد مفتاح، طبع المركز الثقافي العربي بيروت، ط٢ (١٩٩٠)، ص ٤٤.

٨ – السابق والصفحة.

٩ – السابق والصفحة.

١٠ – علم لغة النص (المفاهيم والاتجاهات)، للدكتور سعيد حسن بحيري، مكتبة لبنان ناشرون الشركة العالمية للنشر- لونجمان، ط١ (١٩٩٧)، ص ١٠٨.

١١ – لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب لمحمد خطابي ص٥، وينظر بلاغة الخطاب وعلم النص ص ٣٢٨.

١٢ – النص والخطاب والاتصال ص ٩٠

١٣ – – معجم تحليل الخطاب، لباتريك شارودو ودومنيك منغو وآخرين، ترجمة عبد القادر المهيري، وحمادي صمود، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠٠٨ سلسلة اللسان ص ١٠٠.

١٤ – السابق والصفحة

١٥ – علم لغة النص، بحيري ص ٢٢٠.

١٦ – الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، نشر دار التراث القاهرة، دت، ج٣/ص ٢٥٩-٢٦٠.

١٧ – Sowinski، Bernhard: Text linguistik، verlage W. Kohl hammer، Stuttgart- Berlin-Koeln-Mainz (١٩٨٣) S ٨٣.نقلا عن كتاب حبك النص، منظورات من التراث العربي للدكتور محمد العبد، ص٥٥.

١٨ – دينامية النص ص٥٢.

١٩ – علم لغة النص، بحيري، ص٧٥.

٢٠ – النص والخطاب والإجراء ص ١٠٣.

٢١ – انظر، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، لمحمد خطابي، الناشر المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١ (١٩٩١) ص٥

٢٢ – الاتساق والانسجام في القرآن لمفتاح بن عروس، رسالة دكتوراه، كلية الآداب واللغات جامعة الجزائر، سنة ٢٠٠٨، ص ١٢٢

٢٣ – تحليل الخطاب براون ويول، ترجمة محمد لطفي الزليطي ومنير التركي، مطابع جامعة الملك سعود الرياض، ط (١٤١٧/١٩٩٧)، المقدمة، ص ك.

٢٤ – علم لغة النص، بحيري ص ٢٢٠.

٢٥ – السابق ص١٣١.

٢٦ – ينظر: لسانيات النص لمحمد خطابي، ص ٣٨.

٢٧ – ينظر: السابق، ص ٣٩.

٢٨ –: السابق والصفحة.

٢٩ – ينظر: السابق، ص ٤٠.

٣٠ – ينظر: لسانيات النص لمحمد خطابي ص ٤٢.

٣١ – ينظر: تحليل الخطاب لبراون ويول، المقدمة ص ك.

٣٢ – ينظر: لسانيات النص لمحمد خطابي ص ٥١.

٣٣ – ينظر: تحليل الخطاب لبراون ويول ص٣٥، وانظر لسانيات النص لمحمد خطابي ص ٥٢.

٣٤ – ينظر: لسانيات النص لمحمد خطابي ص ٥٦.

٣٥ – ينظر:تحليل الخطاب ص ٧١، وانظر لسانيات النص لمحمد خطابي ص٥٦.

٣٦ – ينظر: لسانيات النص ص ٥٧.

٣٧ – ينظر: السابق ص ٥٨.

٣٨ – ينظر: السابق ص ٥٩، و ينظر: تحليل الخطاب ص ١٢٧.

٣٩ – أثر السياق في فهم النص القرآني، لعبد الرحمن بودرع، مجلة الإحياء العدد ٢٥، (جمادى الثانية ١٤٢٨– يوليو ٢٠٠٧)، المغرب، ص٧٣.

٤٠ – السياق، إشكالية قديمة في أضواء جديدة، لمحمد الولي، مجلة الإحياء العدد ٢٥، (جمادى الثانية ١٤٢٨– ٢٠٠٧)، المغرب، ص٦٣.

٤١ – نظرية السياق القرآني لعبد الفتاح محمود المثنى، دار وائل للنشر، الأردن، ط١(٢٠٠٨)، ص١٥.

٤٢ – انظر، أثر السياق في فهم النص القرآني، ص٧٥.

٤٣ – علم الدلالة، لأحمد مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٥(١٩٩٨)، ص٦٨–٦٩.

٤٤ – مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ليونس علي محمد، دار الكتاب الجديد، ليبيا، ط١(٢٠٠٤)، ص٢٦–٢٧.

٤٥ – علم النص ونظرية الترجمة، ص٢٩.

٤٦ – اللغة، لجوزيف فندريس، تعريب عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص، نشر مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥٠، ص٢٢٨.

٤٧ – دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم،لعبد الوهاب أبو صفية الحارثي، معان، الأردن، ط١(١٩٨٩)، ص٨٩.

٤٨ – تفسير الكشاف، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، مكتبة العبيكان، ط١(١٤١٨–١٩٩٨) ج٣/ص٢٠٧.

٤٩ – مجموع فتاوى ابن تيمية، لتقي الدين ابن تيمية، طبع ونشر مجمع الملك فهد، سنة (١٤١٦–١٩٩٥)، ج١٤/ص٤١.

٥٠ – انظر دلالة السياق لردة الطلحي (رسالة دكتوراه في اللغة العربية، كلية اللغة العربية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، سنة ١٤٢٣هـ، ص٥٦٩–٥٧٠.

٥١ – السابق ص ٥٨٠.

٥٢ – لسانيات النص، ص٤٢.

٥٣ – السابق والصفحة.

٥٤ – السابق ص٤٤.

٥٥ – علم اللغة النصي، لصبحي إبراهيم الفقي، ج١/ص١١٠.

٥٦ – علم لغة النص، لسعيد حسن بحيري، ص١١١–١١٢.

٥٧ – لسانيات النص، ص٤٤.

٥٨ – السابق ص٤٥.

٥٩ – السابق والصفحة.

٦٠ – السابق ص٤٦.

٦١ – بلاغة الخطاب وعلم النص، للدكتور صلاح فضل، عالم المعرفة، أغسطس ١٩٩٢، ص٢٥٦.

٦٢ – لسانيات النص، لمحمد خطابي ص ٥٩.

٦٣ – السابق والصفحة.

٦٤ – السابق والصفحة.

٦٥ – لسانيات النص، ص٢٩٣.

٦٦ – تحليل الخطاب الشعري.ثنائية الاتساق والانسجام، لفتحي رزق الخوالدة، أزمنة للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط١ (٢٠٠٦م)، ص١٢٤.

٦٧– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١ (١٤١٥هـ–١٩٩٥م)، ج١/ص ١٨ ـ ١٩.

٦٨– البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة، بيروت لبنان، د.ت، ج١/ص٢٧٠.

٦٩– قراءة الصورة وصور القراءة.للدكتور صلاح فضل، دار الشروق، القاهرة، ط١ (١٩٩٧م) ،ص ٦٦.

٧٠ – اللغة والإبداع الأدبي، للدكتور محمد العبد، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، ط١ (١٩٨٩م)، ص٤٨.

٧١ – تحليل الخطاب الشعري.ثنائية الاتساق والانسجام، لفتحي رزق الخوالدة، ص١٢٤.

٧٢ – السابق ص ١٨٩.

٧٣ – السابق ص١٩٢.

٧٤ – البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج١/ص٣٦.

٧٥ – نظم الدرر، للبقاعي، ج١/ص٦.

٧٦– من هؤلاء: ابن قتيبة في (تأويل مشكل القرآن): ٢٣٢–٢٤١، والخطّابي في (بيان إعجاز القرآن): ٤٧–٤٩، وابن فارس في (الصاحبي): ٢٠٧–٢٠٩، والزركشي في (البرهان): ٣/٨ ـ ٣٣، والسيوطي في (الإتقان): ٣/١٩٩.٢٠٩، والدكتور محمود السيد شيخون في (أسرار التكرار في لغة القرآن)، والدكتور محمد محمود زوين في بحثه (من مظاهر التكرار في القرآن الكريم).

٧٧– ينظر: تأويل مشكل القرآن، لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، شرح وتحقيق السيد أحمد صقر، نشر مكتبة دار التراث، القاهرة، ط٢ (١٣٩٣هـ–١٩٧٣م)، ص ٢٣٢.٢٣٥.

٧٨– الصاحبي: ٢٠٩.

٧٩– ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/٨ ـ ٣٣، والإتقان في علوم القرآن: ٣/١٩٩–٢٠٩.

٨٠– البرهان في علوم القرآن: ٣/٩.

٨١– ينظر: البرهان في علوم القرآن:٣/٢٦.

٨٢– ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣/٩.

٨٣ – في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٢(١٤٢٣هـ – ٢٠٠٣م)، ج١/ص٦٤.

٨٤– ينظر تفسير المنار (تفسير القرآن الحكيم)، للسيد محمد رشيد رضا، طبع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م، ج٨/ص٣٤٢–٣٤٤.

٨٥– ينظر: علم اللغة النصي: ٢/٢١.

٨٦– ينظر: روح المعاني: ١٥/ ٢٩٤.

٨٧– ينظر: التصوير الفني في القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط١٦ (١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م)، ص ١٢٦ ـ ١٢٧.

٨٨ – تفسير التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور، دار سحنون، د.ت، ج٢٠/ص٦٠.

٨٩ – انظر، مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير. جمع وتخريج أحمد أحمد البزرا، و مُحَمَّد بن برزق بن الطرهوني، وحكمت بشير ياسين،مكتبة المؤيد، السعودية، ط١ (١٤١٤ هـ ـ ١٩٩٤ م)، ج٣ /ص٣٢٩.

٩٠ – انظر، الفتوحات الإلهية بتوضيح تَفْسِير الجلالين للدقائق الخفية، للعَلاَّمَة الشيخ سليمان بن عمر العجيلي الشافعي المشهور بالجمل، مطبعة الاستقامة. القاهرة. (د.ت)، ج٣ /ص٣٣٣.

٩١ - التحرير والتنوير، ج٢١/ص٦٠.

٩٢ - محاسن التَّأْوِيل، المُسَمَّى (تَفْسِير القَاسِمي)، تَأْلِيف مُحَمَّد جَمَال الدِّيْن القَاسِمي، تصحيح وتعليق: مُحَمَّد فُؤَاد عَبْد البَاقِي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٩٥ م، ج١٣/ص٤٦٩٥.

٩٣ - التحرير والتوير، ج٢٠/ص٦١.

٩٤ - في ظلال القرآن، ج٥/ص٢٦٧١-٢٦٧٤.

٩٥ - السابق، ج٥/ص٢٦٧٥.

٩٦ - التحرير والتنوير، ج٢٠/ص٦١-٦٢.

٩٧ - التحرير والتنوير، ج٢٠/ص٦٢.

٩٨ - السابق والصفحة.

٩٩ - التحرير والتنوير ج٢٠/ص٨٠.

١٠٠ - انظر المرجع السابق ج٢٠/ص٨٠-٨١.

١٠١ - السابق، ج٢٠/ص٧٤.

١٠٢ - السابق ص٧٥.

١٠٣ - السابق ج٢١/ص٨٠.

١٠٤ - الكشاف للزمخشري، ج٣/ص١٥٩.

١٠٥ - معاني القرآن لأبي جعفر النحاس. تحقيق محمد علي الصابوني. ط١. مكة المكرمة: مركز إحياء التراث الإسلامي، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.ج٥/ ص١٦٠.

١٠٦ - تفسير غريب القرآن لابن قتيبة، تحقيق أحمد صقر. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، د.ت.ص٣٢٨.

١٠٧ - تفسير القرآن العظيم، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار طيبة للنشر، (١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م)، ج٦/ص٢٦٠.

١٠٨ - السابق والصفحة.

١٠٩ - تَأْوِيل مُشْكِل القُرْآن، لابن قتيبة أبو مُحَمَّد عَبْد الله بن مسلم، تحقيق: أحمد صقر، نشر المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ط٢ ١٩٨١ م، ص ٤٢٥.

١١٠ - تفسير ابن كثير ج٦/ص٢٦٠.

١١١- البرهان في علوم القرآن: ٣٦/١، وينظر نصُّ كلام الرازي في التفسير الكبير: ١١٠/٤.

١١٢- التفسير الكبير: ١٠٦/٣، وينظر: الإتقان في علوم القرآن: ٣٢٣/٣.

١١٣- البرهان في علوم القرآن، ج١/ص٣٧، وينظر نظم الدرر، ج١/ص٧.

١١٤- في ظلال القرآن، ج٤/ص١٩٣٤.

١١٥- ينظر: علم اللغة النصي: ٢١/٢.

١١٦ الآيات: ٤٠، ٧٤، ٨٧ ـ ٩٣.

١١٧- الآيات: ٢٠ـ ٢٦.

١١٨- الآيات: ١٠٣ـ ١٧١.

١١٩- الآيات:٧٥ - ٩٣.

١٢٠ الآيات: ٥ ـ ٨.

١٢١ الآيات: ١٠١ - ١٠٤.

١٢٢ الآيات: ٦٠ـ ٨٢.

١٢٣- الآيات: ٩ - ٩٩.

١٢٤ – الآيات: ٤٥-٤٨.

١٢٥الآيات: ١٠-٦٨.

١٢٦ ينظر: في ظلال القرآن: ٢٥٨٨/٥.

١٢٧- الآيات: ٧ ـ ١٤.

١٢٨- الآيات: ٣ ـ ٤٣.

١٢٩- ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٢٩، وفي ظلال القرآن: ٢٦٧٦/٥.

١٣٠- الآيات: ١١٤ ـ ١٢٢.

١٣١- الآيات: ٢٣ – ٤٦.

١٣٢ – الآيات: ٤٦ ـ ٥٦.

١٣٣- الآيات: ٣٨ ـ ٤٠.

١٣٤- الآيات: ١٥ ـ ٢٦.

١٣٥- جاءت هذه الإشارات في سورة المزمل: ١٥ـ ١٦، والأعلى: ١٨ ـ ١٩، والفجر: ١٠، و(ق): ١٢ ـ ١٣، والقمر: ٤١ ـ ٤٢، و(ص): ١٢.

١٣٦- ينظر: التصوير الفني في القرآن: ١٣١.